٧١
المجلد

ISSN 2347-2456

شعارنا الوحيد إلى الإسلام من جديد

البعث الإسلامي

مجلة إسلامية شهرية جامعة

العدد الأول – المجلد الحادي والسبعون
جمادى الأخرى ١٤٤٦هـ – ديسمبر ٢٠٢٤م

- سبعون سنة في مجال البعث الإسلامي (افتتاحية العدد)
- أيُنقص الدين و أنا حي ؟
- صانع التاريخ ، وليس من صنع التاريخ
- عبادة العباد
- حب النبي صلى الله عليه وسلم
- رعاية الله للمرأة على تداول الأزمان
- النظافة في الحياة البشرية من خلال المصادر الإسلامية والدراسات الحديثية
- موقف الزمخشري في البلاغة القرآنية : دراسة تحليلية
- الإمام الشافعي لغوياً وشاعراً
- رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه

تصدرها : مؤسسة الصحافة والنشر، ص.ب.٩٣، لكناؤ. الهند
If undelivered please return to:
Al Baas El Islami, Majlis Sahafat wa Nashriyat , Nadwatul Ulama Campus, Tagore Marg,
Post box no.93 Lucknow-226007 Uttar Pradesh, India.
Email: info@albasulislami.com Website: www.albasulislami.com

العبقري العصامي !

العبقري العصامي الذي يأخذ من علوم الغرب ما تفتقر إليه أمته وبلاده ، وما ينفع عمليًا ، وما ليس عليه طابع غرب أو شرق ، إنما هي علوم تجريبية تطبيقية ، وينفض عن كل ما يأخذه من الغرب غبارًا لصق به في القرون المظلمة ، وفي عصر الثورة على الدين ، وفي حالة توتر أعصاب وقلق نفوس ، يأخذ العلوم المفيدة مجردة من روح الإلحاد والعداء للدين ، ومن النتائج الخاطئة ، ويطعمها بالإيمان بفاطر الكون ومدبره ، ويستنتج منها نتائج أعظم وأوسع وأعمق وأكثر سعادة للإنسانية ، مما توصل إليه أساتذتها الغربيون .

العبقري العصامي الذي لا ينظر إلى الغرب كإمام وزعيم خالد ، وإلى نفسه كمقلد وتلميذ دائم ، إنما ينظر إلى الغرب كزميل سبق ، وكقرين تفوّق في بعض العلوم المادية والمعاشية ، فيأخذ منه ما فاته من التجارب ، ويفيض عليه بدوره ما سعد به من تُراث النبوة ، ويعتقد أنه إن كان في حاجة إلى أن يتعلم من الغرب كثيرًا ، فالغرب في حاجة إلى أن يتعلم منه كثيرًا ، وربما كان ما يتعلمه الغرب منه أفضل مما يتعلمه هو من الغرب ، ويحاول أن ينهج - بذكائه وجمعه بين حسنات الغرب والشرق ، وقوى الروحانية والمادية - ويضيف إلى المدارس الفكرية ، والمناهج الحضارية مدرسة جديدة تستحق كل عناية ودراسة وتقليد واتباع. هذا هو العبقري العصامي الذي لا يزال مفقودًا في صفوف القادة والزعماء في العالم الإسلامي على كثرتهم وتنوعهم ، وهذا هو العملاق حقًا الذي يبدو في جانبه القادة المقلدون المطبقون صغارًا متواضعين كالأقزام.

(سماحة العلامة الندوي رحمه الله)

الاشتراكات السنوية

- **في الهند**

أربع مائة (بالبريد العادي)	٤٠٠ / روبية
سبع مائة (بالبريد المسجل)	٧٠٠ / روبية
ثمن النسخة	٤٠ / روبية

- **في العالم العربي ، وفي جميع دول العالم:**

٧٥ /دولارًا بالبريد الجوي ، أما البريد العادي فهو ملغى بصفة رسمية

- **المجلة غير ملتزمة بكل فكر ينشر فيها**

عنوان المراسلات:

ترسل الاشتراكات بالشيك: باسم "البعث الإسلامي"

AL-BAAS, A/C NO. 10863759846
IFSC CODE: SBIN0000125, SWIFT CODE: SBININBB157
STATE BANK OF INDIA, LUCKNOW MAIN BRANCH (INDIA)

مكتب البعث الإسلامي

(مؤسسة الصحافة والنشر) ندوة العلماء ص ب ٩٣، لكناؤ (الهند)

AL-BAAS-EL-ISLAMI
MAJLIS SAHAFAT WA NASHRIYAT , NADWATUL ULAMA
P.O. BOX. 93, LUCKNOW - 226007 - U.P. (INDIA)

بسم الله الرحمن الرحيم

شعارنا الوحيد إلى الإسلام من جديد

المجلد ٧١

مؤسسة الصحافة والنشر

البعث الإسلامي

مجلة إسلامية شهرية جامعة

December 2024 — ديسمبر ٢٠٢٤م

العدد الأول – المجلد الحادي والسبعون – جمادى الأخرى ١٤٤٦هـ – ديسمبر ٢٠٢٤م

ندوة العلماء

تأسست ندوة العلماء ودارالعلوم التابعة لها على مبدأ التوسط والاعتدال، والجمع بين القديم الصالح والجديد النافع،وبين الدين الخالد الذي لا يتغير، والعلم الذي يتغير ويتطور ويتقدم ، وبين طوائف أهل السنة التي لا تختلف في العقيدة والمنصوص، وقامت من أول يومها على الإيمان بأن العلوم الإسلامية علوم حية نامية ، وأن منهاج الدراسة خاضع لناموس التغير والتجدد ، فيجب أن يتناوله الإصلاح والتجديد في كل عصر ومصر، وأن يزاد فيه، ويُحذف منه بحسب تطورات العصر، وحاجات المسلمين وأحوالهم.

الإمام العلامة الشيخ السيد أبوالحسن علي الحسني الندوي (رحمه الله)

أنشأها

فقيد الدعوة الإسلامية

الأستاذ محمد الحسني رحمه الله تعالى

في عام:١٣٧٥هـ -١٩٥٥م

المشرف العام

الأستاذ السيد

بلال عبد الحي الحسني الندوي

رئيس التحرير

سعيدالأعظمي الندوي

مدير التحرير

محمد فرمان الندوي

مساعد التحرير المسئول عن المكتب

محمد عبد الله المخدومي الندوي

المراسلات

البعث الإسلامي

مؤسسة الصحافة والنشر

ص.ب.٩٣ لكناؤ (الهند)

AL-BAAS-EL-ISLAMI

MAJLIS - E - SAHAFAT -WA- NASHRIYAT P. O. BOX: 93 Tagore Marg, Lucknow. Pin:226007 U. P. (India) Mob: 9889336348, 8400476826

Email: albaas1955@gmail.com , info@albasulislami.com

محتويات العدد

العدد الأول – المجلد الحادي والسبعون – جمادى الأخرى ١٤٤٦هـ – ديسمبر ٢٠٢٤م

❖ أخي القارئ :

أخي القارئ الكريم — مدير تحرير المجلة — ٥

❖ الافتتاحية :

سبعون سنة في مجال البعث الإسلامي — سعيد الأعظمي الندوي — ٦

❖ التوجيه الإسلامي :

أيُنقص الدين و أنا حي ؟ — الإمام الشيخ السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي — ١٠

صانع التاريخ ، وليس من صنع التاريخ — فقيد الدعوة الإسلامية الشيخ السيد محمد الحسني — ١٥

عبادة العباد — الدكتور أشرف شعبان أبو أحمد — ١٩

❖ الدعوة الإسلامية :

حب النبي صلى اللّه عليه وسلم — الشيخ السيد بلال عبد الحي الحسني الندوي — ٢٦

رعاية اللّه للمرأة على تداول الأزمان — الدكتور غريب جمعة — ٣٠

النظافة في الحياة البشرية من خلال المصادر الإسلامية والدراسات الحديثية — د . يوسف محمد الندوي — ٣٦

دور الوالدين في تربية الأبناء وتنمية تعليمهم وأخلاقهم النبيلة — الباحث عبد الرشيد غازي — ٤٣

❖ الفقه الإسلامي :

قضايا مستجدة حول نفقة المطلقة — د . المفتي محمد مصطفى عبد القدوس الندوي — ٥١

❖ دراسات وأبحاث :

مكتبة شبلي النعماني العامة لندوة العلماء تاريخها ، وذخايرها العلمية — الأستاذ محمد فيضان النغرامي الندوي — ٥٨

موقف الزمخشري في البلاغة القرآنية : دراسة تحليلية — الدكتور محمد نعمان حسن المدني — ٦٤

أثر القرآن الكريم في تطوير النقد العربي القديم — الدكتور بلال أحمد شاه — ٧٣

❖ أدب الرحلات :

رحلة إلى الأردن : بين المقدسات والمعالم — الأخ السيد عبد العلي الحسني الندوي — ٧٩

❖ رجال من التاريخ :

الإمام الشافعي لغوياً وشاعراً — الباحث أشفاق أحمد واني — ٨٤

❖ قرأت لك :

التفسير الموضوعي لسور القرآن العظيم — الدكتور صالح العود — ٩١

أبو حنيفة : حياته وعصره ، آراؤه وفقهه للشيخ محمد أبي زهرة المصري — الباحث محمد مرغوب الرحمن الندوي — ٩٣

❖ بأقلام الشباب :

نجم تألق ثم هوى — الأخ محمد مزمل حسين — ٩٦

❖ صور وأوضاع :

رجال صدقوا ما عاهدوا اللّه عليه — محمد فرمان الندوي — ٩٧

❖ إلى رحمة الله تعالى :

١. الأستاذ علي حسن الندوي إلى رحمة اللّه تعالى — قلم التحرير — ١٠١

٢ الأستاذ نديم الواجدي إلى رحمة اللّه تعالى — " " " — ١٠٢

بسم الله الرحمن الرحيم

أخي القارئ الكريم !

نحمد الله تعالى على أن مجلة البعث الإسلامي تفتتح بهذا العدد المجلد الحادي والسبعين ، فدخلت المجلة في السنة الحادية والسبعين منذ بدايتها عام ١٩٥٥م ، وهي مدة لا بأس بها في مجال الصحافة الهادفة التي اجتازتها المجلة خلال هذه المدة المديدة ، فالقلب واللسان يلهجان بالثناء والشكر لله عزوجل ، الذي وفق المسئولين عنها للاستمرارية في هذا الدرب الدعوي .

صدرت مجلة البعث الإسلامي في الخمسينيات من القرن العشرين الميلادي ، وكانت هناك هتافات ونداءات إلى أسماء ومسميات ما أنزل الله بها من سلطان ، فقد شعر بخطورة الوضع الإمام العلامة السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي (رحمه الله تعالى) ، فغرس هذا الغرس المثمر تحت إشراف أخيه الكبير الشيخ السيد عبد العلي الحسني رئيس ندوة العلماء آنذاك على يد الأديب الموهوب الأستاذ السيد محمد الحسني الذي لم يجاوز من عمره عشرين عاماً ، فلا يزال يُثري المجلة إلى آخر لمحة من حياته ، بتعاون مخلص من سعادة أستاذنا الدكتور سعيد الأعظمي الندوي (أطال الله بقاءه) ، فصدر العدد الأول للمجلد الأول في شهر صفر سنة ١٣٧٥هـ ، المصادف أكتوبر عام ١٩٥٥م ، وكان العدد الأول يغطي ٣٢/ صفحة من القطع الصغير ، لكن مع مرور الزمن تزايدت صفحاتها حتى بلغت إلى مائة صفحة ، وقد كتب افتتاحية العدد الأول منشئ المجلة الأستاذ السيد محمد الحسني (رحمه الله) حول : أهدافنا ، يقول في افتتاحيته : " **إنها ليست مجلة كبعض المجلات الأدبية في القاهرة وبيروت ، تلعب وتلهو بالأدب ، إنها مجلة ذات دعوة ، وذات عقيدة ، وذات مبدء ، وذات رسالة** " .

إن سعادة أستاذنا الدكتور سعيد الأعظمي الندوي وإن آلت إليه مسئولية رئاسة التحرير بعد وفاة الأستاذ السيد محمد الحسني رحمه الله ، لكنه كان رئيساً مشاركاً في إصدار المجلة من أول يومها ، فإنه لا يزال يسير بالمجلة على نفس الخط الذي رسمه مسئولوها الأولون ، وقد مضت على هذه المجلة سبعون عاماً بتوفيق من الله وفضله ، ويشرف الآن على المجلة نجل منشئ المجلة فضيلة الشيخ السيد بلال عبد الحي الحسني الندوي رئيس ندوة العلماء ، فنحن إذ نبدأ المجلد الجديد للمجلة ندعو الله تعالى أن يجعل التوفيق حليف العاملين في المجلة ، ويكرم القائمين والمشرفين عليها ، وأصحاب الأقلام والدراسات العلمية بالاستمرارية في هذا العمل الدعوي ، حتى تصل رسالة الإسلام بواسطة هذه المجلة إلى ما شاء الله أن تصل ، وتستكمل المجلة غايتها المتوخاة من إصدارها . وما ذلك على الله بعزيز .

كتبها بقلمه
مدير تحرير المجلة
١٤٤٦/٤/٢١هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

سبعون سنة في مجال البعث الإسلامي

مضت سبعون سنة على صدور مجلة البعث الإسلامي ، وهذه الفترة طويلة في مجال الصحافة العربية الإيجابية ، ولم يكن إصدار هذه المجلة خلال هذه الفترة مجرد مجلة فقط ، بل كان الهدف وراءها نشر الفكر الإسلامي إزاء الفكر المادي ، وتصحيح المفاهيم الخاطئة عن الإسلام ، وإعادة الثقة بالإسلام إلى الشباب المسلم ، وذلك بالتركيز على اللغة العربية لئلا يتخلف الجيل الجديد عن قافلة الحياة ، فقد تركت المجلة آثاراً رائعة ، وملامح طيبة على الأجيال الحديثة ، ونفخت فيها روح الإيمان واليقين ، وملأت قلوبها بالعواطف الإسلامية ، وبذرت فيها بذور الفكر الإسلامي ، حتى آتت ثمارها ، وانتفع بها كل قاص ودان ، وقريب وبعيد ، ولا تزال تستمر هذه السلسلة ، ونرجو أن الله عز وجل يقدر لها البقاء والخلود إلى يوم الدين بإذنه .

سبعون سنة في تاريخ الأجيال مدة طويلة ، تأتي فيها ثلاث مراحل : فالأطفال يكونون شباباً ، والشباب يكونون كهولاً ، والكهول يكونون شيوخاً ، أضف إلى ذلك الشيوخ والمسنين ، فإنهم يفارقون الدنيا ، ويلبون نداء ربهم ، هكذا تتداول الأيام والليالي ، فسبعون سنة لها أهمية تاريخية في التاريخ الإنساني ، وقد رأت المجلة في هذه المدة كثيراً من التطورات والتحولات ، وتغير الحكام والأمراء ، وشاهدت أنواعاً من النظريات والأيدلوجيات ، وسياسات البلاد ، وسجلت الشعارات الزائفة من القومية والوطنية والتقدمية والرأسمالية والشيوعية ، فقامت بحل كثير من القضايا الشائكة ، والمشاكل العالمية ، وكشفت عن زيف النظريات الخداعة ، ورفعت اللثام عن الحركات الهدامة ، ولا تزال المجلة تقدم حلولاً ناجعة ، وردوداً مقنعة للنوازل والكوارث في ضوء الكتاب والسنة ، والفقه الإسلامي ، والأولى والأهم أن المجلة لا تزال تنشر المواد والدراسات التي تغذي كل الطبقات من الشباب والكهول والشيوخ ، والمثقفين والعقلانيين رجالاً ونساءً ، وتسدِّد خطاهم ، وتعطيهم نظرة إسلامية صحيحة نحو الأوضاع المعاصرة والظروف المتجددة .

سبقت مجلة الضياء مجلة البعث الإسلامي ، وقد أنشأ هذه المجلة الرائدة الأستاذ مسعود عالم الندوي بتعاون من زميليه الكريمين الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي والشيخ محمد ناظم الندوي رحمهما الله ، وقد أشرف على المجلة الشيخ محمد تقي الدين الهلالي المراكشي ، والعلامة السيد سليمان الندوي رحمهما الله تعالى ، ويصور العلامة السيد سليمان الندوي وضع اللغة العربية في الهند إبان صدور مجلة الضياء : " ما يؤلمنا ويشوكنا نشره أن هؤلاء الجم الغفير والعدد الوفير أكثرهم بُكم عن التكلم باللغة العربية ، ولهم عي عن الكتابة البديعة السلسة المنسجمة ، فضلاً عن الخطابة فيها مرتجلين ، وليست كتابتهم إلا في أمور طفيفة من الفقه ، أو أبحاث سمجة في المنطق تمجُّها الآذان ، ولا تسمن ولا تغني من جوع العلم ، وتنبو طباعهم عما تنشره الصحف والمجلات الأردوية ، فلا يقرؤنها فيحرمون من حظ وافر من العلم الذي يتزايد أمره كل يوم ، وينمو شأنه كل صباح ومساء ، وزادك أسفاً لو رأيت مناهج دروسهم العقيمة وما فيها من الكتب القيمة ذات الأساليب الرميمة ، وأول من تنبه لسد هذا الخلل وملافاة هذا الخطأ دار العلوم التي أسسها ندوة العلماء ، فأفرغت جهدها في تعليم اللغة العربية قديمها وحديثها ، كتابةً وخطابةً ، وزادت في قائمة درسها كتب الأدباء المجيدين من السلف الكرام ، الذين كتبهم ينبوع الأدب ، ومادة لغة العرب " (افتتاحية مجلة الضياء عام ١٩٣٢م) .

هكذا كان الوضع في الثلاثينيات من القرن العشرين الميلادي ، فظهرت مجلة الضياء على منصة الظهور عام ١٩٣٢م ، وقد حازت المجلة ثقة الأدباء والمفكرين في العالم العربي ، ونالت حظوةً طيبةً في الأوساط العلمية والدينية ، وهي التي نفت عن قلوب العرب ظنهم الخاطئ عن مسلمي الهند في اللغة العربيه وآدابها ، حتى اضطر علماء العرب وأدباؤهم إلى مدح علماء الهند والثناء على اطلاعهم الواسع على اللغة العربية أدباً وفناً ، واعترفوا بفضلهم في هذه الناحية ، واستمر صدور مجلة الضياء أربع سنوات فقط ، ثم احتجبت وانقطعت عن الصدور ، ولم يكن لدى ندوة العلماء ترجمان أو لسان حال لها باللغة العربية ، ثم قدر الله تعالى أن تطلع شمس مجلة البعث الإسلامي من أفق ندوة العلماء عام ١٩٥٥م ،

فجعلت تنير البيئات العجمية والعربية بأضوائها ، وتنفض الغبار الكثيف عن أجواء العالم الإسلامي ، لا شك أن إصدار هذه المجلة كان مغامرة كبيرة ، واقتحاماً عظيماً في مجال الصحافة الهادفة ، لكن الله تعالى ذلل الصعاب ووفر الإمكانيات والوسائل لإصدار هذه المجلة .

صدرت مجلة البعث الإسلامي ، وهي تحمل عنواناً مثيراً يتفق والهدف المتوخى من إصدارها بإزاء البعث العربي ، الذي حصر الأمة العربية في نطاق العنصرية والعرقية بقيادة ميشيل عفلق ، مؤسس حزب البعث يوم ذاك ، إلا أنه لم ينجح في تحقيق الأهداف التي توقعها من خلال البعث العربي ، وسرعان ما نالت الجماعات الإسلامية في الدول العربية ضالّتها المنشودة في اسم البعث الإسلامي ، وجعلته عنواناً لدعوة الناس إلى الإسلام من جديد ، فكان سماحة العلامة السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي قد تنبأ بحزمه وبصيرته النافذة حاجة الأمة الإسلامية إلى البعث الإسلامي ، ودعوتها إلى منصبها الدعوي القديم ، وسمَّى المجلة بهذا الاسم الجامع الذي يمثل رسالة الإسلام وحاجة الدعوة المعاصرة .

وتعتبر فترة الأستاذ السيد محمد الحسني رحمه الله فترة ذهبية للمجلة ، فإنه وقف كل شيئ لرفع مستوى المجلة ، فسرعان ما أصبحت المجلة من أشهر المجلات العربية ، وقد أدت المجلة واجبها نحو البعث الإسلامي واليقظة الدينية في العالمين العربي والإسلامي ، وقد وضعت على الوتر الحساس ، فشعرت بآلام النقد اللاذع القوى المعادية للإسلام ، يتحدث الإمام الندوي عن هذا الوضع : " لما جاءت الفترة الحالكة التي هبَّت فيها عاصفة القومية العربية الهوجاء في الخمسينيات الأولى ، وسحر بها أكثر أبناء العرب وشبابهم ، وكثير من كهولهم وعلمائهم ، يقودها الرئيس المصري جمال عبد الناصر بشخصيته القوية وبراعته في فن الدعارة والمناورة ، وكانت فتنةً عمياء ، أعمت وأصمت ، وموجةً عارمة اكتسحت الصحافة والأدب ، برزت مجلة البعث الإسلامي في الميدان ، وعلى رأسها محررها الشاب يحمل راية النقد الجريئ ، والحسبة القوية ، والهجوم العنيف ، حسبت له القيادة المصرية وصديقاتها حسباناً لم تحسبه لمجلة أخرى ، وطلب تحريرها في الجهات المختصة في بلاده ، ونوقش الموضوع ، فلم يلن ، ولم يستكن ، واستمر في كتاباته ، حتى انقشع

الضباب ، وتبين الصبح لذي عينين ، وتلك مأثرة تنير تاريخه في الدنيا ، وتبيض صحيفته في الآخرة بإذن الله تعالى " (تقديم للإسلام الممتحن) .

فمجلة البعث الإسلامي جامعة عالمية فكرية ، ومدرسة توجيهية تربوية ، ومؤسسة علمية وأدبية يتعلم فيها الصغار والكبار ، والرجال والنساء ، والعلماء والمثقفون ، وقد حلم بهذه الجامعة مؤسسها الأستاذ السيد محمد الحسني رحمه الله قبل وفاته بسنوات ، وظل رئيساً لهذه الجامعة خلال أربعة وعشرين عاماً ، وكانت أقسام هذه الجامعة تشتمل على التفسير والحديث والفقة الإسلامي ، والفكر الإسلامي والأدب والبلاغة ، والنحو والصرف وعلم الاقتصاد والغزو الفكري ، وقضايا العالم الإسلامي ، فكان الطلاب الملتحقون بهذه الجامعة يواصلون دراساتهم خلال هذه المجلة ، ولا تزال تستمر هذه السلسلة ، فكم من خاملي الذكر نالوا بها شهرة وصيتاً حسناً ، وكم من ضعاف العقيدة والإيمان رسخت عقائدهم في أذهانهم ، وكم من أغلوطات وشبهات أزيلت ودفنت في عقر دارها ، وكم من نظريات وأفكار هدامة كشفت زيوفها ، وقد خرَّجت جامعة البعث الإسلامي آلافاً مؤلفةً من الدعاة والمفكرين والكتاب والمؤلفين ، والمثقفين ، وهم منتشرون في أنحاء العالم الإسلامي ، يسبحون بحمد ربهم – فلله الحمد والشكر – .

فنتفاءل بمرور سبعين سنة على المجلة بأن الله تعالى تقبل جهود المسئولين ، وكلل مساعيهم بالنجاح ، وتوج أفعالهم بتاج الكرامة والشرف ، بحيث بلغت المجلة إلى سبعين سنة ، وقد استعملت كلمة سبعين في الحديث النبوي للكثرة والزيادة ، أما سبعون ألفاً من الملائكة يطوفون البيت المعمور أو يدخل الجنة سبعون ألفاً من الرجال الذين لا يرقون ولا يسترقون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون (صحيح البخاري : ٥٧٠٥) فحدث عن البحر ولا حرج ، فمجلة البعث الإسلامي شجرة وارفة الظلال ، أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون .

والله يقول الحق ، وهو يهدي السبيل .

سعيد الأعظمي الندوي
١٤٤٦/٤/٢٥هـ
٢٠٢٤/١٠/٢٩م

أيُنقص الدين وأنا حي ؟ *

الإمام الشيخ السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي رحمه الله

أيها الإخوان ! أقول لكم : إن الأشياء الكفيلة الضامنة لنجاح الدعوة إنما هي عوامل معدودة ، أستطيع أن ألخصها في عاملين أساسيين :

أولهما : أن تملك الفكرة وتهيمن على مشاعر الداعي ، وأن تجري منه مجرى الروح والدم ، وأن تمتزج بنفسه ، هنالك يكون الداعي هو الداعي الموفق الملهم ، المؤيد من الله الذي سيكتب له النصر ، ولا يكتب له أي إخفاق أو فشل .

فالشرط الأول ألا تكون الدعوة صناعةً أو حرفةً أو فناً ، وألا تكون حذلقة ومجرد براعة في الخطابة ، بل تكون عقيدة وفكرة ، وإيماناً يستحوذ على النفس الإنسانية ، ويملأ جميع جوانب النفس ، حتى إذا أراد الإنسان أن يتخلى عنها لم يستطع ولم يقدر ، هذا كان شأن سيدنا أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – يوم الردة ، هل تستحضرون الكلمة الخالدة التي نطق بها والتي غيرت مجرى التاريخ ؟!

طُلب مني أن ألقي الكلمة الأخيرة في المؤتمر الآسيوي الإسلامي الأول في كراتشي ، وأمامي نخبة من قادة الفكر الإسلامي ، ومن قادة العالم الإسلامي ، فاستعنت بهذه الكلمة ، وقلت لهم : ما هي تلك الكلمة التي ستكون رائدة هذا المؤتمر ، فيحملها الذين يتصرفون من هذا المؤتمر ؟ قلت لهم : إن الكلمة التي تحملونها من هنا هي الكلمة التي جرت على لسان أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – يوم الردة ، ومنع الزكاة : " أينقص الدين وأنا حي ؟ " .

أنتم المسؤولون أمام الله يا إخوتي الطلبة ! أبنائي شباب المسلمين والعرب ، أنتم مسؤولون أمام الله ، درستم في هذه الجامعة المباركة ، وأي مكان أقرب إلى مدرسة الرسول صلى الله عليه وسلم وإلى صفة

* ألقى العلامة الندوي هذه الكلمة في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، في شهر ربيع الأول سنة (١٤٠٠هـ) ، وحضرها طلاب الجامعة وأساتذتها والمسؤولون عنها في عدد كبير . وقد رأس الحفل سعادة الدكتور عبد الله الزايد ، نائب رئيس الجامعة .

المسجد النبوي التي درس فيها كبار الصحابة ، وحفظوا ، ووعوا أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتخرج منها مثل أبي هريرة راوية الحديث ، ووعاء من أوعية العلم ، أي جامعة أقرب إلى هذه المدرسة من هذه الجامعة ، إذا فمن أي جامعة تتوقع أن يخرج منها دعاة تملكهم الدعوة ؟!

والله لو استطعت أن أنقش هذه الكلمة على صدر كل واحد منكم لفعلت ، يا ليتها كانت هذه الكلمة مكتوبة في كل بيت على لوحة بقلم عريض : " أينقص الدين وأنا حي ؟ " .

أما الشيئ الثاني : فهو التجرد عن المطامع ، والزهد في الدنيا ، لا أعني به زهداً نصرانياً ، ولا زهداً رهبانياً .

(وَرَهْبَانِيَةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ) [الحديد : ٢٧] .

ولا رهبانية في الإسلام ، ولكن الدعوة تحتاج إلى شيئ من سمو النفس وعلو الهمة ، والتجرد عن المطامع ، والزهادة في المناصب والوظائف الكبيرة .

إن من توجهون إليهم الدعوة إذا علموا أنكم تنافسونهم في ملكهم ، وفيما وسع الله به عليهم ، فإنهم يشكون في إخلاصكم ، ويكونون حرباً عليكم ، فأوضحوا لهم أنكم لستم طلاب ملك ، ولا منتجعي جاه ومنصب ، ولا رواد ثروة ورخاء ، أو مدفوعين من شح وحرص .

قيل لشيخ الإسلام ابن تيمية : يقال : إنك تريد الملك ، فقال في دهشة وقوة : أنا أريد الملك ؟! والله إن ملك التتار لا يساوي عندي درهماً ، وقد كانت دولة التتار أكبر دولة ، وأكبر قوة على وجه الأرض في ذلك الحين .

وإن أحد المربين في الهند الذي نفع الله به خلقاً كثيراً ، عرض عليه ملك دهلي مالاً طائلاً ، فقال له : لا شأن لي به ، قال : لا بد من أن تقبل شيئاً مما أعطاني الله ، فقال : إن الله سبحانه وتعالى يقول : (قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ) [النساء : ٧٧] فإذا كانت الدنيا كلها قليلة : فقارة آسيا – طبعاً – أقل منها ، والهند أقل منها ، ثم دهلي أقل منها ، وأنت لا تملك إلا هذا ، فكيف أرزؤك في هذا الزهيد اليسير ؟!

وأحكي لكم قصة وقعت في دمشق ، كان الشيخ سعيد الحلبي من كبار الأساتذة والمربين في القرن الماضي ، وكان – مرة – يلقي درساً في جامع من جوامع دمشق ، فجاء إبراهيم باشا – الحاكم العام لسورية – وإبراهيم باشا من تعرفونه في القسوة والعنف – ودخل ووقف أمام الباب ، وكان الشيخ يشكو ألماً في رجله ، وكان مادا

رجله إلى الأمام ؛ لأنه كان مستنداً إلى جدار المحراب ، ويلقي الدرس، فكانت رجله إلى الباب ، فدخل إبراهيم باشا ومعه المحافظون العسكريون ، والشرطة ، فانتظر وتوقع أنه سيقبض رجله ، ولكنه لم يفعل ، وخاف أصحابه عليه من السيف ، وقبضوا ثيابهم لئلا يصيبها دم زكي ، دم عالم تقي ، وبقي إبراهيم باشا واقفاً ، ثم رجع ، وأرسل صرة من دنانير ذهبية مع أحد الخدم ، وقال : تقدم إلى سيدنا الشيخ سعيد الحلبي ، وتقول له : هذه هدية من إبراهيم باشا ، فلما جاء بها الخادم إليه قال كلمته البليغة الحكيمة التي هي أبلغ من ألف قصيدة ، قال : قل لسيدك : إن الذي يمد رجله لا يمد يده .

فالإنسان مخير ، إما أن يمد رجله وإما أن يمد يده ، فإذا مد رجله لا يسوغ له أن يمد يده ؛ لأنه تناقض .

وقد جُبل الناس على حب من زهد فيما عندهم والبغض لمن ينافسهم فيما يحرصون عليه ، هذه هي الطبيعة البشرية منذ آلاف السنين ولا تزال ، فأنتم إذا أردتم أن تؤثروا في نفوس من توجهون إليهم الدعوة ، فأوضحوا لهم أولاً ، وطمئنوهم أنكم لستم طلاب ملك ومال وطلاب رئاسة وجاه ، وطلاب مناصب ووظائف ، إنما أنتم تفعلون ذلك شفقة عليهم ، ورقة بهم ، وعطفاً عليهم ، وخوفاً من أن يصيبهم مكروه .

أنا تلميذ صغير لتاريخ الإصلاح والتجديد ، وإن هوايتي – وإن كانت متعددة – ولكن تأتي في مقدمتها هوايتي في التاريخ ، وخاصة تاريخ الإصلاح والتجديد ، فما رأيتُ تجربة في القرون الأخيرة – أعني : بعد القرن الثامن على الأقل – أنجح وأكثر توفيقاً من تجربة الإصلاح والتجديد التي قام بها الشيخ أحمد السرهندي في القارة الهندية ، وقد حكيت قصته في الجزء الرابع من كتابي : رجال الفكر والدعوة ، وستقرؤون هذه القصة بالتفصيل هناك .

تقرؤون فيه أنه كيف استطاع الرجل الأعزل المجرد من كل سلاح ، والمجرد من كل ثروة مادية ، والمجرد من كل جيش ، أن يحول التيار في الإمبراطورية المغولية العظمى التي كانت في الدرجة الثانية بعد الإمبراطورية التي لم تكن إمبراطورية – بعد الإمبراطورية العثمانية – أكبر منها مساحة ، وأكثر منهما فتوحاً ونجاحاً ، كان على رأسها الملك القوي القاهر الذي اتسعت له الفتوحات الواسعة العظيمة ؛ وهو جلال الدين أكبر ، وكان هذا الإمبراطور نشأ في قلبه عداء للإسلام ، وحقد

عليه ؛ لأنَّ مَنْ ينحرف عن الإسلام ، ويثور عليه أقبح وأشد من الذي نشأ في الكفر ، كما حكيت لكم في حديثي بالتفصيل في محاضرتي بعنوان : " عاصفة يواجهها العالم الإسلامي والعربي وفي هذه الجامعة نفسها ، ولأن الذي يخرج من النور إلى الظلام يكون أعمش ، وأقل إبصاراً من الذي نشأ في الظلام ، ثم إنه يُصاب بمركب النقص .

فكان الإمبراطور جلال الدين ، نشأ فيه عداء شديد للإسلام ، ومن الأمثلة على ذلك أنه ما كان يستطيع أحد في بلاطه أن يُسمي ابنه محمداً ؛ لأنه كان يكره هذا الاسم ، فترك الناس التسمية بهذا الاسم ، وكان من يذبح بقرة في عهده يعاقب بالقتل ، وكان قد فتح الخمارات ، وشجع الناس على شرب الخمور ، وأكل لحم الخنزير ، وكان قد تأثر بالبرهمية والوثنية الهندية . كان يتجه بالمملكة إلى الطابع الهندي البرهمي ، والفلسفة الهندية القديمة [1] .

هنالك قيض الله – تعالى شأنه – لمكافحة هذا التيار ، ومقاومة هذه الفتنة العظيمة الشيخ أحمد السرهندي (٩٧١ – ١٠٣٤هـ) فجلس في ركن من أركان بيته ، وبدأ يفكر في شق الطريق لمكافحة هذا التيار ، فجعل يراسل الملك وأهل البلاط ، من الوزراء الكبار ، والأمراء العظام ، ويثير فيهم النخوة الإسلامية ، والحمية الدينية ، ويقول لهم : يا جماعة ، أنتم مسلمون وأولاد المسلمين ، وقد شرفكم الله تعالى بنعمة الإسلام ، ورغم ذلك نرى أتباع محمد صلى الله عليه وسلم – وهو حبيب رب العالمين – أذلاء في هذه البلاد التي فتحها المسلمون ، وأراقوا عليها أزكى دمائهم ، وصرفوا لها أفضل عبقرياتهم ، وأحسن مواهبهم كيف تحتملون هذا الوضع ، وكيف ترضون بذلك يا عباد الله ؟!

صار يثير فيهم كامن الإيمان ، ويُحرّك فيهم العرق الإسلامي الذي لا يخلو منه قلب أي مسلم ، وما زال يثير فيهم النخوة الإسلامية ، ويواصل العمل ، وبقي هكذا مدة طويلة يراسل ، ويكتب ، ويقابل حتى كسب عدداً من الأمراء ، فكانوا أنصاره وتلاميذه ، ومات جلال الدين أكبر ، وخلفه ابنه نور الدين جهانكير ، وطلبه إلى بلاطه ، ولم يسجد له الشيخ تعظيماً كما كانت العادة في البلاط ، فسجنه فبقي في السجن سنتين ، ثم أمره بأن يبقى في المعسكر ، ويرافقه لمدة ثلاث سنين ، فصبر على هذه الحالة ، وعرف جهانكير أنه من طراز آخر ، وأنه عالم

[1] راجع للتفصيل محاضرة العلامة الندوي في هذا الجزء بعنوان " الدعوة الإسلامية في الهند وتطوراتها " .

رباني مخلص ، زاهد في الدنيا محب للخير فأحبه وأجله ، وبدأ يهتم برفع شعائر الإسلام وبناء المساجد في المناطق والقلاع التي كان يفتحها ، واحترام الإسلام والمسلمين .

ولم تزل تجري اتصالاته بالأمراء المسلمين وكبار الوزراء ؛ حتى كوَّن مجموعة مؤمنة ذات حمية دينية ، فقلَّب التيار ، وغيَّر مجرى التاريخ ، فكان جهانكير أفضل من أبيه أكبر ، وكان ابنه شاهجهان أفضل من أبيه جهانكير ، ومما يدل على ذلك أنه لما صنع له عرش الطاووس ، الذي صرف عليه الملايين ، وتربع عليه نزل بعد هنيهة ، وقال : لقد كان فرعون سفيهاً ، إنه جلس على عرش آبنوس ، وادعى الألوهية ، وقال : (أَنَا رَبُّكُمُ الأعلى) [النازعات : ٢٤] ولكني أنا مسلم ، ثم سجد الله شكراً ، ثم جلس على العرش .

وخلفه أورنك زيب عالمكير ، ذلك الذي دوَّن الفتاوى الهندية ، وطبق الأحكام الشرعية ، ونصب الجزية على الهندوس ، وكان من أفقه الملوك الذين عرفناهم في العصور الأخيرة ، ومن أغير الملوك على الإسلام ، ومن أكثر الناس حرصاً على اتباع السنة لا تفوته جمعة ولا جماعة ، وحفظ القرآن الكريم ، وجمع أربعين حديثاً ، وشرحها .

كل ذلك بجهود رجل واحد فقير أعزل ، ولكنه تملكته العقيدة ، وسيطرت عليه الفكرة ، وتشبثت به الغاية النبيلة ، حتى أصبح لا يملك نفسه ، ولا يقدر على التحول من موقفه ، وقد أثبت للملوك أنه لا يريد الملك ، وقال لهم : إذا صلحتم أنتم فأنتم أولى للحكم ، لا أشاطركم ، ولا أنافسكم في ملككم ، وأدعو الله تعالى لكم بالتوفيق والنجاح ، وخذوا أنتم الزمام بأيديكم ، وطبقوا الأحكام الشرعية ، وتوجهوا بهذه البلاد إلى الإسلام .

هذان عاملان أساسيان في رجال الدعوة : أحدهما : تملك الفكرة وسيطرتها على نفسه ، والثاني : التجرد عن المطامع الدنيوية ، والزهد في المناصب ، والملك .

وأكتفي بذلك ، وأرجو أن يكون هذا بلاغاً للمستمعين النبهاء الأذكياء أبنائنا أبناء الجامعة الإسلامية ، وعسى الله أن ينفعنا جميعاً لما فيه خير الإسلام والمسلمين .

وأعود لأقول لكم : إنه ينبغي أن تكون كلمتكم الرائدة : " أينقص الدين وأنا حي " ؟!

والسلام عليكم ، ورحمة الله وبركاته ، وآخر دعوانا : أن الحمد لله رب العالمين .

صانع التاريخ ، وليس من صنع التاريخ

يقولون : إن البعث العربي هو البعث الإسلامي ، ولا تعارض بينهما ، وأن البعث العربي هو قبول أقدار وقيم ، وتجارب وحوادث مرت بها الأمة العربية من بينها – الإسلام – خلال رحلتها الفكرية والاجتماعية عبر القرون والأجيال ، ويقولون : إن الإسلام أقوى تجربة عرفها الشعب العربي ، وأعظم رصيد حضاري في تاريخه ، وأكبر عامل في تكوينه بلا شك ، ولكنه على كل حال تجربة . . . اجتماعية تاريخية هامة لا تعني إبطال غيرها من القيم والأقدار والفضائل ، وهدم ما بناه الأوائل ، بل إن الإسلام هو في الواقع امتداد طبعي للعوامل الاجتماعية في الأمة العربية ، وإن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الإنتاج الطبعي والثمرة اليافعة للحضارة العربية والتجربة العربية و " العمل العربي التاريخي " ، ولذلك فإن محمداً صلى الله عليه وسلم هو مفخرة كل عربي ، ونموذج رائع لحيوية الشعب العربي ، واكتماله ونضوجه وتطوراته ، ومظهر للروح العربية الثورية ، المتحفزة المقدمة ، المنطلقة دائماً للأمام .

إنها فكرة نادى بها زعماء البعث العربي ، وقد يبدو أنها فكرة بريئة تقدمية لا تمس مبادئ العقيدة ، ولا تغير وضع الدين ، ولا تجرح روح الإسلام ، وواضحة سهلة يسيغها العقل المتجرر والروح العربية الثائرة ، وقد وقع في هذه الشبكة عدد وجيه من الشباب الذكي ورجال الفكر في العالم العربي .

أما الرأي بأنها فكرة ثورية لا تمس روح الإسلام ، فإنه لا يصح مطلقاً ، لأنها لا تقطع الصلة بالنبوة والوحي والغيب . وتعطي أساساً آخر هو أساس التجربة العربية والواقع العربي فهو عندها الأم التي خلقت عدة بنات وبنين يحملون طبائع مختلفة ، ولكنهم على كل حال أولاد وأفلاذ أكبادها وعصارتها وانعكاسها ، وأما القول بأنها واضحة صريحة منطقية ، فإنها أبعد من الوضوح والصراحة أكثر من أي شيئ آخر ، لأنها تجاهلت التاريخ الإسلامي المبني على النبوة والوحي والغيب والرسالة السماوية الأخيرة ، ولم تميز بين فضائل الإسلام وفضائل ما قبل الإسلام ،

وأقامت نظريةً كاملةً ، ودستوراً مسطوراً ، وأنشأت حزباً على " افتراض " وخيال لا صلة له بالواقع ، وفي هذه المناسبة أكتفى بنقطتين هامتين .

أولاً : الزعم بأن " الواقع العربي " هو أم الحوادث ، والتجربة العربية هو الأساس الذي يدور حوله القيم والأقدار ، والأهداف والغايات والمصاير والمعالم ، يقضي على ضرورة النبوة والوحي ، والرسالة والهدي السماوي ، والدستور الإلهي ، والتشريع الإسلامي ، ويجعله " تابعاً " يدور في فلك التجربة العربية ، ورحلتها الاجتماعية الفكرية ، وتقدمها الطبيعي ، كما يتقدم الولد في السن ، ويدخل من دور إلى دور ، ويكتمل نموه وتنضج عقليته على مر الأيام .

إنه يعني أن الإسلام مرحلة من مراحل الحياة العربية ، ولكنها مرحلة هامة تستحق الإعجاب ، ولها دور كبير في تكوين العقلية العربية ، إنه إن ينظر إليه ويعامل ، فيعامل على أساس أنه جزء من أجزاء الفكر العربي ، وتجربة من تجاربها ، لا على أساس أنه وحي منزل من الله ، ودستور سماوي خالد للبشر لا يقبل التغير والتعديل ، ولا يحتاج إلى " زيادات " وملحقات لتساير الزمن فإنه يسبق الزمن ، وينظر بنور الله العليم البصير القدير العزيز الحكيم الواسع ، لا بنظرة الإنسان المحدودة القاصرة .

إن معناه محاولة قطع صلة الشعب العربي عن معين النبوة الصافي الفياض ، وقطع صلته عن السماء ، لأن الإسلام الذي لا يكيف الحياة بل تكيفه الحياة ، والإسلام الذي لا يوجه الأحداث ، بل توجهه الأحداث ، والإسلام الذي لا يكوّن الشعور والعقلية ونظرة الشعب إلى الحياة والأشياء ، يكونه شعور الشعب الأصيل المتزايد ، ونظرته إلى الحياة والأشياء هو الإسلام الذي لا حاجة لنا به ، وهو ليس الإسلام المقصود ، المطلوب من البشر ، وهو ليس الإسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، فغير به اتجاه العالم ونفسيته وعقليته ، ووضع له أساساً خالداً واضحاً معلوماً لا حاجة له إلى غيره ولا نجاة له في غيره .

ألا إنه لا قيمة للإسلام في كونه مجرد تجربة هامة ، أو كونه سهماً كبيراً رائعاً من السهام الكثيرة في تشييد الحضارة العربية واكتمالها الطبيعي ونضوجها العقلي ، إن قيمته أنه منزل من الله ودستور إلهي للبشر على اختلاف قومياته وأزمانه ، فإذا هدم هذا الأساس الأبدي الخالد الوحيد وقطعت هذه الصلة الحقيقية ، أو اضمحلت فتحت ثغرة واسعة ، بل فتح الباب على مصراعيه للإلحاد والمادية ، وحكم الإنسان

للإنسان ، ولم تقف في وجه قوة تدفع بها إلى الوراء ، وتقاومها مقاومةً فعالة ، وظهرت في العالم العربي – مهبط الرسالة السماوية الحارس الأمين للرسالة الإلهية الأخيرة والإسلام – فتنة عمياء يذهب لها لب الرجل الحازم ويصعب فيه أخيراً على باحث الحق التمييز بين الحق والباطل ، والنور والظلام .

ثانياً : إنها فكرة لم تقم على دراسة " الإسلام " ودراسة أدواره وتاريخه ، فحكم التاريخ شاهد عدل على أن العرب لم ترفع لهم راية إلا في ظل الإسلام ، وأنهم لم يحققوا كل هذه المعجزات والانتصارات إلا بقوة الإسلام ودافعه بعد ظهور الإسلام وانتشاره واستيلائه وتمكنه في العقول والقلوب والضمائر والأرواح .

الفضائل الإنسانية العامة مثل الجود والسخاء والشجاعة والمروءة ، والكرم ورجاحة العقل ، والشهامة والطموح وغيرها هي ليست أساس انتعاش الأمه العربية ، بل أساس انتعاشها وظهورها على مسرح القيادة العالمية ، هو دعوتها ورسالتها التي حملتها وتفانت في سبيلها وتقدمت بها إلى غيرها من الشعوب ، لأنها فضائل تشترك فيها جميع الشعوب في العالم ، وهي طبائع يولد بها الإنسان ، الإسلام بصفته ديناً إلهياً وتشريعاً سماوياً ، وبصفته دين الفطرة ، أبقى على هذه الفضائل ، لكنه غير اتجاهها ، ووضعها في خدمة الإسلام والرسالة السماوية ، فالكرم والشجاعة والمروءة والحرية لا تحمل معنىً ، بل تصبح عذاباً وتصبح وبالاً ، إذا لم تستوح الإسلام ، ولم تقتبس من نوره ، ولم تضطلع بروحه وأهدافه ومراميه ، إذن فالإسلام هو الأساس الوحيد لكل فضيلة ، وهو الذي جعل الفضيلة فضيلةً والرذيلة رذيلةً ، أو بتعبير آخر منحها معنىً وهدفاً وقيمةً واتجاهاً خاصاً .

الرذائل والفضائل لا تحمل قيمةً بنفسها ، وهي ليست محمودةً أو مذمومةً بذاتها ، بل إن الرضا الإلهي والسخط الإلهي هو الذي يمنحها الحسن ، أو يصمها بالعار ، ويكتب لها الخزي في الدنيا والآخرة ، وتلك نقطة يجب أن لا تفوتنا للحظة واحدة .

فالفضائل التي حملها العرب ، والحوادث التي مروا بها في تاريخهم ، والتجارب التي كونت شخصيتهم ، أو ساعدت في اكتمال الشخصية ، كانت فضائل ضائعة ، أو فضائل " هدامة " ولا مؤاخذة على هذا التعبير ، أو فضائل غير مقبولة عند الإسلام ، والرسالة المحمدية هي التي منحتها الهدف ، وهيأت لها الميدان ، وصقلتها ، وهذبتها ، وأنارتها

بنور الله .

وهنا نقطة أخيرة لا بد من الإشارة إليها في هذه السطور السريعة ، الدين – في كل زمان ومكان – لا يخلق الفضائل ، بل إنه يوجه الفضائل ، إنه لا يخلق الصفات ولا يأتي بها من العدم إلى الوجود ، بل إنه يستخدمها في سبيله ، ويصرف فيها حسب رغباته ، إنه لا يقطع شأفة الرذائل مثل الغضب والانتقام والشهوة والتنافس والحسد ولا يزيلها ، بل يميلها ويوجهها من الشر إلى الخير ، فيصبح الغضب محموداً في وجه الباطل ، ويصبح الانتقام محموداً في سبيل الحق ، والشهوة مباحة في أوجه الحلال ، ويكون التنافس مرحباً به في مواضع الخير ، ويصبح الحسد غبطة في الخيرات ، وسباقاً في الحسنات .

فالمسألة ليست مسألة فضائل ، أو مسألة صفات ، أو مسألة مقومات ، إنما المسألة مسألة عقيدة ورسالة ، ودعوة وهدف ، والإسلام هو الأساس الذي قامت عليه هذه العقيدة والرسالة ، وظهرت منه هذه الدعوة ، وهو الذي وضع للعرب خاصة وللعالم الإنساني عامة أهدافاً محدودة معلومة خالدة ودستوراً كاملاً لجميع نواحي الحياة الإنسانية على اختلاف ظروفها وأوضاعها ، وعلى تباين أقطارها وبلادها ، وعلى تعدد مطالبها وحاجاتها .

فالبحث عن أسس جديدة لنهضة العرب واعتبار الإسلام عاملاً من العوامل التاريخية ، وتجربة من التجارب القومية ، ومرحلة ضرورية هامة من مراحل النمو الشعبي الطبيعي ورغبته في تحقيق الذات ، ليس إلا إحباطاً للجهود ، وقتلاً للمواهب ، وإضاعة للوقت ، إذا كان عن حسن نية ، ومؤامرة ضد الإسلام وتبييتاً لاغتياله في الظلام ، إذا كان عن خبث في النية ومكر في الصدر .

وعرض شخصية النبي الكريم صلى الله عليه وسلم كنموذج للحضارة العربية العامة الغارقة في القرون ، وإنتاج رائع من إنتاجها ، ليس إلا محاولة كريهة متعفنة لإدخاله – صلى الله عليه وسلم – في صف الأبطال والزعماء ، وتجريده من النبوة والكرامة التي أشرق بها الكون ، واستنارت بها الإنسانية ، ودعوة العالم العربي إلى أن يعود إلى عهد الظلام ، ويؤثر هذا التخبط والفوضى الفكرية على ذلك النور الذي جاء به الرسول ، فكان صبحاً صادقاً للإنسانية ودستوراً خالداً للبشرية ، (قَدْ جَآءَكُمْ مِّنَ ٱللَّه نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ . يَهْدِى به ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ ٱلسَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِّنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِه وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) [المائدة : ١٥ – ١٦] .

عبادة العباد

الدكتور أشرف شعبان أبو أحمد *

سجل لنا التاريخ الإسلامي أن حواراً دار بين الصحابي الجليل ربعي بن عامر ورستم قائد الفرس ، عن الأفكار العامة للإسلام ، قال فيها ربعي بن عامر رضي الله عنه : لقد ابتعثنا الله لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، فمن قبل ذلك منا قبلنا منه ، وإن لم يقبل قبلنا منه الجزية ، وإن رفض قاتلناه حتى نظفر بالنصر . وقوله : ابتعثنا الله تدل على أنه ابتعثنا مثل الرسل ، فالله سبحانه وتعالى كلفنا بمهمة ، كان الرسل مكلفين بها ، وبما أنه لم يعد هناك أنبياء ورسل ، فنحن الذين نتحمل هذه المهمة إلى يوم القيامة . ثم قال : لنخرج العباد ، كل العباد في مشارق الأرض ومغاربها ، على اختلاف الأزمنة والأمكنة ، ثم قال : من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد .

فأهل فارس لم يكونوا يعبدون كسرى ، وأهل الروم لم يكونوا يعبدون قيصر ، لكن كان هؤلاء الزعماء كسرى وقيصر ومن كان على شاكلتهم ، يشرع لقومه ، ويضع قوانين مخالفة لما أمر الله عز وجل به ، فهذا التشريع هو عبادة لهم . والمسلمون لهم مهمة في منتهى الوضوح ، وهي إخراج العباد من عبادة العباد ، إلى عبادة رب العباد . ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، وهذه المهمة التي كان يفهمها الصحابي الجليل الذي خاطب رستم في موقعة القادسية ، وكان يفهمها كل الصحابة ، هي مسئولية كل المسلمين في كل وقت وحين . وعندما سمع عدي بن حاتم قوله تعالى : (ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَانَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبۡحَانَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ) [سورة التوبة : ٣١] ، قال : يا رسول الله ! إنا لسنا نعبدهم . فقال له النبي عليه الصلاة والسلام : أليسوا يحلون ما حرم الله فتحلونه ، ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه ؟ قال : بلى . قال

* جمهورية مصر العربية .

عليه الصلاة والسلام : فتلك عبادتهم ، تبين الآيات أن أحبار اليهود ، ورهبان النصارى ، شرعوا لأتباعهم من كلا الفريقين ، ما يحلون به ما حرم الله ، ويحرمون ما أحله ، فأطاعوهم ، فكانت تلك عبادتهم لهم ، وبتشريعهم هذا اتخذوهم أرباباً من دون الله ، وينطبق هذا على كل من أطاع مشرعاً في استحلال ما حرم الله وتحريم ما أحل الله ، سواءً كان هذا المشرع عالماً أو حاكماً أو مجلساً من المجالس التشريعية التي تشرع وتسن من القوانين ما هو مخالف لما شرع الله . وعن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : " تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد القطيفة تعس عبد الخميصة تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش إن أعطى رضي وإن منع سخط " ، فالرضا والسخط عنده مرتبط بالأخذ والمنع ، أي بمدى منفعته واستفادته الشخصية ليس إلا . قال الإمام ابن تيمية : فالمحبوبات المعظمة ، لغير الله ، قد أثبت الشارع فيها اسم التعبد ، كما ورد في الحديث السابق . وهذه الأربعة على سبيل المثال لا الحصر ، فمن أحب شيئاً ، وتعلق قلبه ونفسه وجوارحه به ، وسخر حياته له ، وكان شغله الشاغل ، وكان غاية قصده ومراده ، يتفانى في جمعه إن كان متاعاً أو مالاً ، وفي رضاه والتذلل والخضوع والتملق والإخلاص له إن كان شخصاً أو سلطة ، يعمل له ، لا لله ، يوالي لأجله ، ويعادي لأجله ، ويرتكب ما لا يجوز وما لا يصح مرضاة له ، يذعن له ويطيعه فيما أمر ونهى ، يهابه ويخشى نقمته وغضبه ، يعتقد بأن بيده حياته أو مماته ، وفقره أو غناه ، ونفعه أو ضره ، وضحكه أو بكاءه ، يتوكل ويعتمد عليه ، وإليه يدعو ويرجو ، وفيما عنده يرغب ، ولا يستعين أو يستغيث إلا به ، لا يتوانى عن شكره والثناء عليه ، والتغني بفضله وعظمته ، فإن كان هذا هو حاله ، فقد صار عبداً له ، وإن لم يصل له ، ولم يسجد له ، أو كما وصفه النبي عليه الصلاة والسلام ، عبداً تعساً له . وصار ذلك معبوده وإلهه ، وإن لم يكن كما يظن ويعتقد ، وإن لم يمنحه ما يطمح فيه .

نخلص مما سبق إنه يمكن للإنسان أن يتخذ معبوداً له من دون الله ، سواء كان على دراية بذلك أم لم يكن ، وسواء كان مكرهاً على ذلك أو طائعاً مختاراً ، وسواء كان هذا المعبود بشراً ، أم أحد المحبوبات المعظمة للنفس ، كالتي سبق ذكرها ، وطالما أن عبارة " عبادة العباد " التي قالها ربعي بن عامر رضي الله عنه ، لم ينكرها عليه ممن عاصره ، ولا ممن تناقلوها عنه ، ولا ممن تناولوها وتداولوها عبر

كتب التاريخ على مر العصور ، لذا يمكن إطلاقها ، كلما تواجدت الأحداث والوقائع الدافعة لقولها ، وسواء كان هذا الملك أو القائد أو الرئيس أعجمياً أو عربياً ، وسواء كانت هذه الدولة أو البلد مسلمة أو غير مسلمة .

وعلى مدار التاريخ تعددت المعبودات في حياة البشرية ، وقد اختارها الإنسان ظناً منه إنها ترزقه أو تحميه أو تقيه شر الطبيعة والظواهر الطبيعية أو من الحيوانات المفترسة أو تحل له مشاكله وتشفيه من الأمراض أو إنها تلبي له احتياجاته وإشباع غرائزه وشهواته ، فمنهم من عبد الشمس أو القمر أو الكواكب ، ومنهم من عبد النار ومنهم من عبد البقر ومنهم من عبد الملائكة أو الأشجار أو الأحجار أو القبور أو الأضرحة أو الأصنام .

وفي مجال عبودية البشر ، نجد التشريعات التي هي سبب العبودية ومرجعها الأول والأخير ، اتسعت في كثير من الأحيان ، لتشمل حياة البشر منذ ولادتهم حتى مماتهم ، ومنذ استيقاظهم حتى منامهم ، فمن الناس من يخيل له أنه أرقى جنساً ، وأسمى عنصراً من سائر البشر ، وأنه ما خلق إلا ليقود ويسود ، وأن غيره ما خلقوا إلا ليقتادوا ويساسوا ، وهم مسخرون ومقهورون ، وسواء كان هذا التخيل لفرد أو لطبقة أو لجماعة أو لهيئة أو لدولة ، وتخيله هذا يدفعه للتحكم في مصائر ما تحت يديه ، ومن يخضعون لسلطته من البشر ، يوجههم كيفما شاء ، يقرر لهم تعليماً لا يزيدهم إلا جهلاً وأمية ، ويلزمهم بوظائف لا تتناسب مع إمكانياتهم وقدراتهم ، يفرض عليهم دخلاً يحقق أدنى مستوى معيشي ، يتساوى فيه من يجتهد ، ومن لا يجتهد في العمل ، يوجب عليهم الزواج والإنجاب أو يحظره عليهم ، يعين لهم ما يشاهدون وما يسمعون وما يقرأون وما يفكرون فيه ، وليس لهم الخيرة في أي أمر من أمور حياتهم ، بل إليه يرجع الأمر كله . وعلى الجانب الآخر ، نجد من الناس من يعلو بهذا الشخص فوق منزلته ، ويضيف عليه هالة من القدسية ، ويحكي عنه وينسب إليه من المعجزات والأساطير ، ما لا يتقبلها عقل أو يصدقها حدس ، مما ترفعه لمنزلة الإله ، كالتي تقوم به بعض الأجهزة والهيئات ، من تأليه الطواغيت ، وجعلهم فوق البشر ، تنفخ وتلمع فيهم ، وتنزههم عن الخطأ وعن الزلل ، فهذا هو القائد الفذ ، والعبقري الملهم ، وصانع الحاضر والمستقبل ، خطواته هي المعروف بعينه ، ولسانه ينبوع الحكمة ، لا

يوجه له نقد ولا قدح ، ولا يسأل عما يفعل ، حتى ولادته وسيرته فإنها خارج نواميس البشر ، وملامحه مميزة لا يمكن رسمها أو وصفها ، ولا يتشابه فيها مع أحد ، فينصاع لها البسطاء والجهلاء وأصحاب الذمم والضمائر المباعة والمنتفعون والمأجورون ، فيؤدون له كافة فروض الطاعة والولاء طائعين مختارين .

وقد ضرب القرآن الكريم مثلاً بفرعون ، فقد اعتبر نفسه مرشداً ، فقال كما نصت سورة غافر الآية ٢٩ (مَآ أُرِيكُمْ إِلاَّ مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ ٱلرَّشَاد) فضلاً عن أنه كان يدعي أنه هو حاكم هذا الشعب بشريعته وقانونه ، وإنه بإرادته وأمره تمضي الشئون وتقضى الأمور ، وقد أصيب بجنون العظمة ، فقال (يا قَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مصْرَ وَهَـٰذِه ٱلأَنْهَارُ تَجْرِى من تَحْتِي) [الزخرف : ٥١] ، ثم انتقل لمرحلة متقدمة في الألوهية ، وقال (أَنَا رَبُّكُمُ ٱلأَعْلَىٰ) [النازعات : ٢٤] ، ثم اختص نفسه وحدها بالألوهية (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إِلَـٰه غَيْرِى) [القصص : ٣٨] ، ولم يكن لفرعون أن يستخف قومه فيطيعوه ، لو لم يكونوا فاسقين ، عن دين الله (فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَاسِقِينَ) [الزخرف : ٥٤] وفي مصر أيضاً ، مظهر آخر للنظرة الدنيوية للبشَر ، عندما قال الخديوي توفيق للزعيم أحمد عرابي : كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها ، وإني ورثت هذه البلاد عن آبائي وأجدادي ، وما أنتم إلا عبيد إحساننا . أي أنتم رهن بما نحسن به منا عليكم من عطايانا . فرد عليه عرابي : نحن خلقنا الله أحراراً ولم يخلقنا تراثاً أو عقاراً ، فوالله الذي لا إله إلا هو ، إننا لا نورث ولا نستعبد بعد اليوم .

وترجع عبودية البشر ، لما جبلت عليه البشرية منذ قديم الأزل ، وما تأصل في ثقافات العديد من الشعوب القديمة ، فالمصادر التاريخية تخبرنا بأن الرق كان أمراً سائداً عند الأمم السابقة ، فقد كان منتشراً عند قدماء المصريين والبابليين والبراهمة والفرس والروم والعرب ، وأقرته اليهودية والنصرانية واعترف به فلاسفة اليونان وفقهاء القانون ، وخلال القرون الطويلة الغابرة من العبودية ، وبمقدار عطنها في التاريخ ، تأصلت في طبائع هؤلاء البشر ، وانطبعت أفعالهم وأقوالهم ببعض الصفات والنعوت ، استحكمت في نفوسهم ، وتعمقت في وجدانهم ، والتصقت بحياتهم ، وبعد مماتهم أصبحت إرثاً يتوارثونه جيلاً بعد جيل ، وهو الذي

دفع أبناءهم وأحفادهم وذريتهم وسائر أعقابهم ، خلف عن سلف ، إلى تحسسها والتماسها والبحث عنها أينما وكيفما وجدت ، ومع إلغاء شبه تام لتجارة العبيد والعبودية ، في شتى دول العالم الغربي والعربي ، تشكلت أنواع متنوعة ، في تعاملات البشر بعضهم لبعض ، لا تخرج عن كونها تكريساً لمفهوم العبودية القديم ، المتعارف عليه والمعتاد عليه ، ولكن بصور حديثة توأم العصر ، مع اختلاف أن عبيد الماضي كانوا يدركون أنهم عبيد ، ويعرفون من هو سيدهم ، أما عبيد اليوم فهم يجهلون من هو سيدهم ، وهل هو فرد أو أكثر ، وهل هو شخص بعينه أو شخص اعتباري ، فهم مغيبون ولديهم صورة مبهمة عما هم عليه . ينطبق عليهم قول المتنبي :

لا تحسبوا رقصي بينكم طرباً فالطير يرقص مذبوحاً من الألم

ويبين لنا الإسلام أن الله عز وجل خلق الإنسان حراً ، وأمده بمستلزمات البقاء على حريته ، من عقيدة يؤمن بها ، تؤكد على عدم عبوديته لغير الله ، وشريعة تحمي وتصون حريته ، وتكفل له الدفاع والاستماتة للحفاظ عليها . أما إذا حاد الإنسان عن هذا ، واتخذ من دون الله آلهةً ، أو أرباباً أو أنداداً أو أولياء ، وأشرك في عبوديته لله ، واعتقد أن هناك من بيدهم أجله ورزقه ، وجوعه وشبعه ، ومرضه وشفاه ، وعزته وذلته ، وأمنه وفزعه ، أو من اتخذ هواه إلهاً ، وصيرت حياته للجاه والمال والحسب والنسب لذاتهم لا لله ، أو لم يفعل من ذلك شيئاً ، ولكنه استسلم لمن غزاه في داره وسلب ماله واغتصب أرضه وهتك عرضه وتملك فكره ورأيه ومقدراته ، فقد وقع أسيراً للعبودية . روى الطبراني عن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : " من أصبح وهمه الدنيا فليس من الله في شيئ ، ومن لم يهتم بالمسلمين فليس منهم ، ومن أعطى الدنية أي " رضي بالذل والخضوع للظالمين " من نفسه طائعاً غير مكره فليس منا " ، فالمسلم لا يقبل الذل ولا يقيم على الضيم ولا يصبر على الهوان ولا يستسلم للمكروه . كما سجل التاريخ للفاروق عمر رضي الله عنه ، رفضه لاستعلاء واستكبار فرد على آخر ونظرته الدنيوية إليه ، ولو كان هذا من ابن والٍ أو أمير على بلد ما ، ففي تلك الحادثة التي قيلت فيها عبارة " متى استعبدتم الناس " ، والتي كان أحد الخصمين فيها قبطياً غير مسلم ، أما الخصم الآخر فلم يكن مسلماً وحسب بل

كان ابن عمرو بن العاص أمير مصر في ذلك الوقت ، لكن ذلك لم يمنع أمير المؤمنين ، من إنصاف الرجل القبطي ، الذي جاء من مصر صحبة أبيه ، ليشتكي له ، من أن ابناً لوالي مصر ، قد ضربه بالسوط ، لأنه سبقه في سباق للخيول جرى بينهما ، وهو يقول له : أتسبقني وأنا ابن الأكرمين ؟ فدفع ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، لاستدعاء عمرو ابن العاص وابنه إلى المدينة المنورة ، وأتى بالقبطي وأعطاه سوطاً ، ودفعه ليضرب ابن الأمير قصاصاً لنفسه ، فضرب القبطي ابن عمرو حتى استوفى حقه ، ثم التفت عمر رضي الله عنه للقبطي وقال له : لو ضربت عمرو بن العاص ما منعتك ، لأن الابن إنما ضربك لسلطان أبيه ، ثم نظر إلى عمرو بن العاص وقال : " متى استعبدتم النّاس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً " . كما قال سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه لولده الحسن ، رافضاً لعبودية البشر : لا تكن عبد غيرك وقد خلقك الله حراً . وفي هذه المقولة مخاطبة موجهة للعبد وليس للمستعبد ، مخاطبة للضعيف وليس للقوي ، فالضعيف هو الذي يخلق القوي ، والخانع هو الذي يخلق المتجبر ، وليس العكس ، فالمشكلة إذن ليست في المتكبر ولا في الفاعل بل في المستضعف والمفعول به ، اللذين رضيا بما هما عليه . لأن الإنسان عندما يخضع لغيره ، فإن معنى ذلك أنه لا يعيش ذاته ، ولا يعيش إنسانيته في ما خلقها الله وفي ما أرادها سبحانه وتعالى ، فغيره الذي يريد وهو يخضع ، وغيره الذي يفرض عليه موقفه وانتماءه وهو يخشع له ، لذا من سنن الله في الأمم ، ألا يغير ما بها من ضعف وذل واستعباد ، حتى يغيروا ما بأنفسهم ، فيأخذوا بأسباب القوة والعزة والحرية ، قال تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ) [الرعد : ١١] .

كما نهى الإسلام عن الغلو في تعظيم الأشخاص وتقديسهم ونفي كل شائبة عنهم ، وإضافة كل مأثرة أو فضيلة أو محمدة لهم ، ونعتهم بما لا يتصف به إلا الله ، أو رفعهم عن منزلتهم التي أنزلهم الله إياها ، فعندما قال بعض الناس : يا رسول الله ! يا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا . قال عليه الصلاة والسلام : " يا أيها الناس قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان أنا محمد عبد الله ورسوله ، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل " ، رواه أحمد والنسائي . فقد كره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يمدحوه بهذه الألفاظ ، أنت سيدنا

أنت خيرنا ، أنت أفضلنا ، أنت أعظمنا ، مع أنه أفضل الخلق وأشرفهم على الإطلاق ، لكنه نهاهم عن ذلك ، وأرشدهم أن يصفوه بصفتين وهما عبد الله ورسوله . ولما قال له بعض أصحابه أنت سيدنا فقال : " السيد الله تبارك وتعالى " ، ولما قال أحد : ما شاء الله وشئت فقال : " أجعلتني لله نداً بل ما شاء الله وحده " . كما قالت امرأة في زمنه وهي تمدحه : وفينا نبي يعلم ما في غد . فنهاها صلى الله عليه وسلم ، وذلك لأن علم الغيب من خصائص وصفات الله . فلا يعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغيب إلا ما علمه الله ، ولا يستغاث به ولا يمدح بالكذب ، كما مدحه بعضهم بأن القمر انشق ، ونزل يسلم عليه ، فانشقاق القمر حدث معجزة له ، ولكن ما نزل ليسلم عليه ، ولا يقترن مدحه بمحظور ، فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مجاوزة الحد في مدحه فقال : " لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله " متفق عليه ، ومعناه : لا تزيدوا في مدحي ولا تمدحوني بغير الحق .

ومع إباحة الإسلام تملك العبيد ، فيما أخذ عن طريق الجهاد المشروع ، لكنه حرم استرقاق الأحرار من غير أسرى الحرب ، وأكد على الإحسان لهم وتعليمهم وتأديبهم وإكرامهم ، وحض على إعتاقهم ، ورغب في ذلك ترغيباً ظاهراً ، وأكثر من مجالات العتق ككفارة الحنث باليمين ، والظهار ، والقتل الخطأ ، والجماع في نهار رمضان ، وفرض نصيب في الزكاة لتحريرهم ، فالعتق قربة ومن أفضل القرب إلى الله ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : " أيما امرئ مسلم أعتق امرأً مسلماً استنقذ الله بكل عضو منه عضواً منه من النار " ، متفق عليه ، فكان من أعتق رقبة من العبودية كمن أعتق نفسه من النار .

ختاماً يجب على الإنسان أن لا يستعبد نفسه ولا فكره ولا مواقفه لشخص آخر أو لجهة أخرى ، وأن يكون فكره منطلقاً من حركة عقله ، فيما يقبله وفيما يرفضه ، وموقفه من خلال قناعاته ، بأنه الموقف الحق ، وإرادته منطلقة من التزامه ، بأن ما يريده هو الإصلاح والصلاح ما استطاع إليه سبيلاً ، واختياره هو الاختيار الموفق بفضل الله وتوفيقه ، وهذا لم يمكن حدوثه ما لم يسر على هدي من الله وسنة نبيه عليه أفضل الصلاة وأتم السلام .

حب النبي صلى اللّه عليه وسلم

الشيخ السيد بلال عبد الحي الحسني الندوي
تعريب : الأخ نعمت اللّه قاسم الندوي*

ميزة العرب الكبرى :

إن العرب رغم مساوئهم المتعددة كانوا أصحاب محاسن متنوعة تميزهم عن غيرهم من الأمم والأقوام ، منها الصدق والوفاء . فإنهم كانوا بعيدين عن النفاق والكذب كل البعد ، وكانت ألواح قلوبهم صافية ، ليست بها بقع الغش والنفاق ، وكانت منافذها مفتوحة للخير والصلاح . فعندما نشأ فيهم الحب الخالص الصافي للّه ولنبيه عليه الصلاة والسلام ونزل إلى قلوبهم حتى بلغ فيها كل مبلغ ، أتوا لحب نبيهم صلى اللّه عليه وسلم بنموذج لا نجد له مثيلاً على صفحات التاريخ الإنساني ، ويشهد بذلك ما وقع في غزوة بدر وأحد وغيرهما من الغزوات والأحداث .

فإذا درس أحد سيرة النبي صلى اللّه عليه وسلم عرف ما كان الصحابة رضي اللّه عنهم متسمين به من صفات التضحية والإيثار والفداء .

الحب الحقيقي :

إن الحب الذي ينبثق من العقل والقلب معاً هو حب ثابت لا يزول . وأما الحب الذي ينحصر في العقل أو يكمن في القلب وحده في خطر .

وكان الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي رحمه اللّه يقول : " ليس يكفي أن يكون الإنسان مسلماً بعقله ولا أن يكون مسلماً بقلبه فحسب ، بل لابد أن يكون كل منهما مسلماً ، فإذا كان الإنسان مسلماً بعقله وقلبه وجسمه وروحه نشأت فيه قوة إيمانية صحيحة سديدة تبعث الإنسان على القيام بعزائم الأمور ومهامها ، وتهديها إلى فعل الخيرات والحسنات .

مقياس الحب :

وقد نبه اللّه سبحانه وتعالى من قدم شيئاً على اللّه تعالى ورسوله

* معهد الدراسات العلمية ، ندوة العلماء ، لكناؤ .

عليه الصلاة والسلام قائلاً : (قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ ٱللَّه وَرَسُولِه وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِه فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِه وَٱللَّهُ لاَ يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ) [التوبة : ٢٤] .

إنه وقت اتخاذ القرار حيث تقف أمامه الدنيا بما فيها من لذة وراحة وسهولة في كفة ، وفي كفة أخرى تتمثل له أحكام اللّه تعالى وتعاليم رسوله عليه الصلاة والسلام .

فهذا هو الوقت الحاسم القاطع . إلى أي جانب تميل نفس الإنسان وبمن يتعلق قلبه أكثر ، فهناك إخوان وزوجات وأقارب وأموال اقترفها وتجارة يخشى كسادها وبيوت فخمة فاخرة جذابة محببة بناها من أموال الربا ، وإنها تجذب الأنظار ، يعجب بها الإنسان ويحبها ، وسيارات جميلة اشتراها بقرض ربوي مما حرمه اللّه سبحانه وتعالى في جهة ، وفي جهة أخرى حكم اللّه ورسوله عليه الصلاة والسلام وتحذيره وتنبيهه .

ففي هذه اللحظات القاطعة يختبر حبه وعلاقته باللّه سبحانه وتعالى ، إنه يقف بين القرارين ، قرار الركون إلى الدنيا وزخارفها واتخاذها في كل حال من الأحوال ، وقرار الخضوع لأمر اللّه ورسوله عليه الصلاة والسلام وامتثاله في أحرج الأحوال وأصعبها .

فإذا كان الحب عقلياً وطبيعياً عندما يتجاوز الحب من العقل الى القلب ويستقر فيه ويتمكن منه أصبح التخلي عن هذه الأشياء أمراً سهلاً جداً ، ولا يجد أي صعوبة في اتخاذ قراره ، ولا يكترث للحظة بشيئ من الدنيا ، ولكن إذا كان الحب محصوراً ثابتاً في العقل ولم يصل بعد إلى المستوى الطبيعي ، فلم يكن من السهل هجر البيت أو التخلي عن السيارة أو مخالفة أهل البيت ، فإن هذه الأمور تصبح صعبةً عزيزةً على نفس الإنسان عندما لا يتجاوز الحب من عقلانية الإنسان المحدودة .

فخلاصة القول أن الإنسان إذا اتصف بالحب الحقيقي الإيماني الذي تمكن من عقله ورسخ في قلبه أصبحت له تضحية بكل شيئ من الدنيا من آباء وأبناء وأقارب وزوجات وتجارة وأموال أمراً بسيطاً عادياً .

حلاوة الإيمان :

لقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم في حديثه ثلاث خصال ، فإنها إن وجدت في أحد ، نال حلاوة الإيمان . وإذا تأملنا قليلاً وجدنا أن هذه الخصال تتعلق بالحب بوجه خاص ، فالخصلة الأولى هي أن يكون اللّه ورسوله عليه الصلاة والسلام أحب إليه من كل شيئ ، فيتملك حب اللّه ورسوله عليه الصلاة والسلام على قلبه ، ويسيطر على قواه وأعصابه ، ويكون كل ما عدا اللّه ورسوله هيناً في عينيه .

فعندما يرى الإنسان أحداً لم ير مثله في الجمال من قبل ، يقع في بعض الأحيان في حبه حتى يبلغ منه كل مبلغ ، ويقلده في أساليب الحياة ، في ملبسه ومأكله ، ومشيه ونطقه . وهكذا يفعل الإنسان عندما استقر حب اللّه ورسوله صلى الله عليه وسلم في قلبه ويتمكن منه .

إذ الحب بنفسه له أثر ملموس عميق في أساليب الحياة ، فإن الإنسان حينما يحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يستن بسنته ويتأسى بأسوته ويتبعه في كل شعبة من شعب الحياة .

والخصلة الثانية هي أنه حبه كله للّه ورسوله عليه الصلاة والسلام ، فلا يحب إلا من يحب اللّه ورسوله عليه الصلاة والسلام ، أو من يحبه اللّه تعالى ورسوله صلى اللّه عليه وسلم أو من يحب دين حبيبه محمد صلى اللّه عليه وسلم وشريعته أو من أمر اللّه تعالى بحبه ، ويحب كذلك كل ما يمت له بصلة حتى طريقه وموطنه ، فنتيجةً لهذا الحب الخالص يشعر بحلاوة الإيمان ، وبهذا الإيمان القوي الناتج عن الحب الصادق يحظى بنعمة الثبات والصمود والاستقامة على الدين .

والخصلة الثالثة التي ورد ذكرها في الحديث هي أن تكون العودة إلى الكفر بعد حصوله على نعمة الإيمان أمراً شديداً مخوفاً ، كما يكره أن يلقى في النار ، فإذا قيل لأحد : إنه سيلقى في النار انتابته رجفة ورهبة من مصيره ، وكذا من المستحيل لمن استغرق في حب اللّه ورسوله صلى اللّه عليه وسلم وتعمق حبهما في سويداء قلبه ، ونال لذة الإيمان وحلاوته ، وسعد بنعمة الاستقامة على دين اللّه تعالى أن يعود إلى الكفر باللّه تبارك وتعالى ، وكيف يمكنه وقد تفانى في حبه ، واستنار بنور معرفته واصطبغ بصبغته .

فمن البديهي أن الإنسان لا يمكن أن يتمرد على محبوب قد استقرت محبته في أعماق قلبه ، وكيف يمكنه أن يتصور فراق محبوبه الذي ملك قلبَه واستولى على ذهنه وقلبه وطبيعته .

فوائد محبته صلى اللّه عليه وسلم :

إن فوائد محبته صلى اللّه عليه وسلم لا تعد ولا تحصى ، ومن أعظم هذه الفوائد أن المحب يفدي نفسه من أجل حبيبه صلى اللّه عليه وسلم ، مما يسهل عليه طاعة النبي صلى اللّه عليه وسلم . وقد أسلفنا ذكره بإطناب .

ومن أكبر فوائدها أن للمحب بشارة عظيمة قيمة ، وهي ما بشر به النبي صلى اللّه عليه وسلم أن المرء يحشر يوم القيامة مع من أحب . فقد روي عن أنس أنَّ رَجُلاً سَأَلَ النبيَّ صلى اللّه عليه وسلم : مَتى السّاعَةُ يا رَسولَ اللَّهِ ؟ قالَ : ما أعْدَدْتَ لَها ؟ قالَ : ما أعْدَدْتُ لَها مِن كَثِيرِ صَلاةٍ ولا صَوْمٍ ولا صَدَقَةٍ ، ولَكِنِّي أُحِبُّ اللَّهَ ورَسولَهُ ، قالَ : أنْتَ مع مَن أحْبَبْتَ . (صحيح البخاري ، كتاب الأدب ، رقم الحديث : ٦١٧١) .

ويدل على ذلك ما رواه عبد الرحمن بن صفوان بن قدامة قال : هاجر أبي صفوان إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم ، وهو بالمدينة ، فبايعه على الإسلام ، فمد النبي صلى اللّه عليه وسلم إليه يده ، فمسح عليها ، فقال له صفوان : إني أحبك يا رسول اللّه ! قال له النبي صلى اللّه عليه وسلم : المرء مع من أحب . (المعجم الأوسط ، رقم الحديث : ٢٠٠١) .

وروي عن الشعبي قال : جاء رجل من الأنصار إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فقال : لأنت أحب إلي من نفسي وولدي وأهلي ومالي ، ولولا أني آتيك فأراك لظننت أني سأموت . وبكى الأنصاري ، فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم : ما أبكاك ، قال : ذكرت أنك ستموت ونموت فترفع مع النبيين ، ونحن إن دخلنا الجنة كنا دونك ، فلم يخبره النبي صلى اللّه عليه وسلم بشيئ ، فأنزل اللّه عز وجل على رسوله صلى اللّه عليه وسلم : (وَمَن يُطعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَـيْهِم مِّـنَ ٱلنَّبِيِّينَ وَٱلصِّدِّيقينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّالحينَ وَحَسُنَ أُولَـٰٓئِكَ رَفيقاً . ذَٰلكَ ٱلْفَضْلُ منَ ٱللَّه وَكَفَىٰ بِٱللَّه عَليماً) . (شعب الإيمان للبيهقي ، رقم الحديث : ١٣١٧) .

رعاية الله للمرأة على تداول الأزمان

حول الطلاق في الإسلام

(الحلقة الثالثة)

بقلم : الدكتور غريب جمعة *

الطلاق في الإسلام هو حل عقد الزواج ، وحل عقد الزواج خطير جداً وأمره عظيم ، ذلك لأن الأسرة إنما تقوم على هذا العقد ، والأسرة هي الأمة في مجموعها ، فالتساهل في حلها حل لأوثق رباط مقدس عند الله وفي المجتمع ، ومن أجل ذلك كان الطلاق مذموماً حتى في الشريعة الإسلامية التي أباحته للضرورة الملحة ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " أبغض الحلال إلى الله عز وجل الطلاق " [رواه أبو داود والحاكم وصححه] .

وما كان الطلاق بغيضاً إلى المولى عز وجل إلا لأنه انهدام لصرح الأسرة وفكاك لوحدتها وتمزق لقوامها ، والأسرة كما قلنا هي قوام المجتمع وتمكينه بها .

ومن الجهل الفاضح من بعض الكاتبين هو حملتهم على الطلاق ، وأنه لا ينبغي أن يكون في أمة من الأمم .

أجل هذا جهل فاضح لأن الحياة إنما هي أخذ ورد وأعمال مختلفة فيها الصالح والطالح ، وفيها الحسن والقبيح ، وفيها الخير والشر فماذا يكون حال المرأة إذا كان زوجها سكيراً شريراً عربيداً لا يبالي بشرف أو عرض فمثل هذا يستحيل بقاء الزوجية معه . والذين كانوا يذمون الطلاق بالأمس القريب عادوا فأقروه في شرائعهم وأخذوا بالواقع الماثل بين أيديهم . ذلك لأن الطلاق حل عقدة مستعصية أحياناً تؤدي إلى مفاسد وشرور كثيرة .

ألا ترى أن الذين كانوا يعتقدون أن عقد الزواج إنما هو عقد سماوي مقدس لا يحل في الأرض عادوا فحلوه ولماذا حلوه ؟

* جمهورية مصر العربية .

لأنهم رأوا فساده وبغيه وظلمه قاصماً للظهور ، ومشتتاً للأفكار . نعم أحل الإسلام الطلاق كما قلنا ، ولكن للضرورة الملحة القائمة والمستحكمة . وهذه الضرورة قدرها الإسلام بقدرها فجعلها كالدواء للداء لا يزيد عن ذلك ولا ينقص شيئاً فجعل الطلاق مراحل . وإذا قال قائل هذا الطلاق بيد الرجل وبعض الرجال لا خلاق لهم ولا ارعواء ولا خوف من الله فيقسون كل القسوة على المرأة فماذا تصنع المسكينة إذا أصيبت بمثل ذلك ؟

الأمر هين ... فالله عز وجل جعل لها الخلع ، والخلع فكاك من الزوجية ، والخلع إنما يكون عن رضا ورد المرأة لما أنفق الرجل وتعويض عن ذلك وهو كاف كل الكفاية . والأصل فيه ما رواه الإمام البخاري والنسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : " جاءت امرأة ثابت بن قيس بن شماس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ! ما أعتب عليه في خلق ولا دين ولكني أكره الكفر في الإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتردين عليه حديقته ؟ قالت : نعم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقبل الحديقة وطلقها تطليقة " .

على أن الطلاق والخلع مقدم عليهما التحكيم والصلح بين الزوجين ، وهذا معروف للمحاكم والقضاة ، والتحكيم حينما يكون من أهل الزوج ومن أهل الزوجة كما أمر الله سبحانه وتعالى فإن فيه كل الإنصاف وكل الحق .

والكراهية التي تخالط أحد الزوجين لا تدوم ، وكذلك أسبابها وبواعثها فمتى فاء الرجل وفاءت المرأة إلى أمر الله وفكر كل منهما في ذلك حصلت الراحة والخير والبركة . وانظر إلى هدى القرآن في الصلح بين الزوجين ترى عجباً ، يقول الله تبارك وتعالى : (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللّهُ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً . وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِه وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلاَحاً يُوَفِّقِ اللّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً) [النساء : ٣٤ – ٣٥] .

ويقول عز من قائل : (فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً) . وقد تقدم الكلام عنها .

ومن البهيمية المزرية أن يظن بعض الناس أن المرأة إنما خلقت للذة فقط ، وينسى ما وراء ذلك من الحمل والولادة والسهر ، وهذه كلها مسائل هامة عظيمة ليست باليسيرة أبداً ، وإنما جعل الله هذه اللذة أشبه بالطعم في المصيدة . وخسر وخاب من ظن أن المرأة مخلوقة للذة فقط ، فمثل هذا الصنف من الرجال لا إنسانية لهم ولا قلوب ولا عقول ، لأن هذه اللذة تعرفها حتى البهائم بل تتناطح التيوس من أجلها .

ثم إن نظام الطلاق في وحي الله جاء ، وفيه الحكمة كل الحكمة والخير كل الخير والهدى كل الهدى .

والحق أن الذي يقصر الزواج على اللذة فقط إنما هو بغيض مهين لا يدري معنى الحياة ولا يفهم أقدارها ومنافعها ، ولماذا كانت ، سواءً كان الزوج أو الزوجة . ألم يعلم أن الزواج إنما هو لبناء الأسرة وبناء الأسرة بناء للأمة ؟ يجهل ذلك فيهدم أو فتهدم البيت الذي هو عماد الأسرة وعماد الأمة ، وهذا كثير جداً لا ينبغي أن يصدر من عاقل .

ألم يرد في حق المرأة التي تطلب لطلاق من زوجها دون مبرر شرعي قول رسول الله صلى الله علي وسلم : " أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة " [رواه أصحاب السنن وحسنه الترمذي] .

وكذلك ألم يرد في حق الرجل العابث بقدسية ميثاق الزواج قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لعن الله كل ذواق مطلاق " [انظر فقه السنة للشيخ سيد سابق الجزء الثامن صفحة ٨ ، طبعة مكتبة الآداب ومطبعتها القاهرة ١٩٦٣م] .

وإذا سألت عن حكم الطلاق في التشريع الإسلامي فقد فصله الإمام أحمد بن حنبل تفصيلاً حسناً ، ونحن نورده هنا : فعنده قد يكون الطلاق (١) واجباً وقد يكون (٢) محرماً ، وقد يكون (٣) مباحاً ، وقد يكون (٤) مندوباً إليه .

فأما الطلاق الواجب : فهو طلاق الحكمين في الشقاق بين الزوجين إذ رأيا أن الطلاق هو الوسيلة لقطع الشقاق .

وكذلك طلاق المولى بعد التربص مدة أربعة أشهر لقوله تعالى : (لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) [البقرة : ٢٢٦ – ٢٢٧] .

والإيلاء هو أن يحلف الرجل أن لا يقرب زوجته ولكن لا ينبغي أن يتمادى في غيه وجهل حقوق المرأة الواجبة عليه . فإن تمادى فبلغ أربعة أشهر يصبح الطلاق هو الحل الوحيد . وإن ثاب إلى رشده وأتى زوجه قبل ذلك يغفر له إساءته وعليه كفارة اليمين .

وأما الطلاق المحرم : فهو الطلاق من غير حاجة إليه ، وإنما كان حراماً لأنه ضرر بنفس الزوج وضرر بزوجته وإعدام للمصلحة الحاصلة لهما من غير حاجة إليه فكان حراماً مثل إتلاف المال لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " لا ضرر ولا ضرار " . وفي رواية أخرى أن هذا النوع من الطلاق مكروه لقول النبي صلى الله عليه وسلم : " أبغض الحلال إلى الله الطلاق " . وفي لفظ : " ما أحل الله شيئاً أبغض إليه من الطلاق " . [رواه أبو داود] .

وإنما يكون مبغوضاً من غير حاجة إليه – وقد سماه النبي صلى الله عليه وسلم حلالاً – ولأنه مزيل للنكاح المشتمل على المصالح المندوب إليها مكروهاً .

وأما الطلاق المباح : فإنما يكون عند الحاجة إليه لسوء خلق المرأة . وسوء عشرتها والتضرر بها من غير حصول الغرض منها .

وأما المندوب إليه : فهو الطلاق الذي يكون عند تفريط المرأة في حقوق الله تعالى الواجبة عليها مثل الصلاة ونحوها ، ولا يمكنه إجبارها عليها – أو تكون غير عفيفة .

قال الإمام أحمد – رحمه الله – لا ينبغي إمساكها ، وذلك لأن فيه نقصاً لدينه ، ولا يأمن إفسادها لفراشه ، وإلحاقها به ولداً ليس هو منه ولا بأس بالتضييق عليهن في هذه الحال لتفتدي منه قال تعالى : (وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ) أي : لا تمسكوهن لتضيقوا عليه . [النساء : ١٩] .

قال ابن قدامة : " ويحتمل أن الطلاق في هذين الموضعين واجب . قال : ومن المندوب إليه الطلاق في حال الشقاق وفي الحال التي تخرج المرأة إلى المخالفة لتزيل عنها الضرر " .أهـ

ولقد سنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم طريقة الطلاق الشرعي المسنون فلا ينبغي للمسلم أن يتجاوزها فإن مجاوزتها غير مرضية ، والطلاق بها مختلف فيه . والطريقة هي : أن يطلق الرجل زوجته المدخول

بها طلقةً واحدةً في طهر لم يمسسها فيه .

قال تعالى : (ٱلطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ . فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ آيَاتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) [البقرة : ٢٢٩ – ٢٣٢] .

أسباب النزول :

- أسباب نزول الآية : ٢٢٩ قوله تعالى : (ٱلطَّلَاقُ مَرَّتَانِ) :

أخرج الترمذي والحاكم وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان الرجل يطلق امرأته ما شاء أن يطلقها وهي امرأته إذا ارتجعها في العدة وإن طلقها مائة مرة وأكثر حتى قال رجل لامرأته : والله لا أطلقك فتبيني مني ولا آويك أبداً قالت : وكيف ذلك ؟ قال : أطلقك فكلما همت عدتك أن تنقضي راجعتك . فذهبت المرأة وأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم فسكت حتى نزل القرآن : (ٱلطَّلَاقُ مَرَّتَانِ) الآية .

- أسباب نزول الآية : ٢٣٠ قوله تعالى : (فَإِنْ طَلَّقَهَا) :

أخرج ابن المنذر عن مقاتل بن حبان قال : نزلت هذه الآية في عائشة بنت عبد الرحمن بن عتيك ، كانت عند رفاعة بن وهب بن عتيك وهو ابن عمها فطلقها طلاقاً بائناً ، فتزوجت بعده عبد الرحمن بن الزبير القرظي فطلقها . فأتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : إنه طلقني قبل أن يمسني أفأرجع إلى الأول قال : لا حتى يمس ونزل فيها (فَإِنْ طَلَّقَهَا) .

- أسباب نزول الآية : ٢٣١ قوله تعالى : (وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ) :

أخرج ابن جرير عن طريق العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان الرجل يطلق امرأته ثم يراجعها قبل انقضاء عدتها ، ثم يطلقها

يفعل ذلك يضارها ويعضلها فأنزل الله هذه الآية .

وروى البخاري وأبو داود والترمذي وغيرهم عن معقل بن يسار أنه زوَّج أخته رجلاً من المسلمين فكانت عنده ثم طلقها تطليقة ولم يراجعها حتى انقضت عدتها ، فهويها وهويته فخطبها مع الخطاب فقال له : يالكع . أكرمتك بها وزوجتكها فطلقتها ، والله لا ترجع إليك أبداً ، فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إليه فأنزل : (وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوف أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوف وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِّتَعْتَدُواْ وَمَن يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلاَ تَتَّخِذُوۤاْ آيَاتِ ٱللَّهِ هُزُواً وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ ٱلْكِتَابِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوۤاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُمْ بِٱلْمَعْرُوف ذٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ ذٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ) .

فلما سمعها معقل قال : سمعاً لربي وطاعةً . ثم دعاه وقال : أزوجك وأكرمك . وأخرجه ابن مردويه من طرق كثيرة .

هذا وموضوع الطلاق موضوع خطير ، وحسبنا ما ذكرنا في هذه العجالة ، ومن أراد التوسع فليرجع إلى الموسوعات الفقهية ففيها طلبته إن شاء الله .

وبعد ، فما قول الذين يعادون الإسلام ويتهمونه بأنه ظلم المرأة ولم ينصفها ؟ فليقدموا ما عندهم إن كانوا صادقين .

ولكنهم عزفوا على وتر حساس تحبه المرأة وهو " حقوق المرأة " وهو قول ظاهره الرحمة وباطنه العذاب ، واللعب بعواطف المرأة واستدراجها إلى أماكن اللهو والعبث والبعد عن الطهر والعفاف .

وقد سار في فلكهم الجهلة من المسلمين الذين لا يقرون معروفاً ولا ينكرون منكراً – حتى أصبحت نسبة الطلاق في المجتمعات الإسلامية نسباً مرعبة تهدد بشر مستطير وإفساد عريض بسبب الخروج على شرع الله وعدم الالتزام بهدي رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولن يصلح آخر هذا الزمان إلا بما صلح به أوله .

قال تعالى : (فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى . وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) . [طه : ١٢٣ – ١٢٤] .

والله الهادي إلى سواء السبيل .

النظافة في الحياة البشرية

من خلال المصادر الإسلامية والدراسات الحديثية

(الحلقة الأولى)

د . يوسف محمد الندوي *

النظافة هي العاملة المهمة في حفظ الصحة وازدهارها في الحياة البشرية ، وهي التي تقي الناس من ألوان القاذورات والنجاسات من الأطعمة والأشربة ، ومن الأدوية والأغذية والألبسة والأحذية والأواني والأبدان والأعضاء والمجالس والمساكن والطرق والشوارع ، إن النظافة ميزة إنسانية يتميز بها البشر عن سائر الحيوانات حيث يستطيع بها أن يتخلص من الأمراض والأسقام الكثيرة .

تعد النظافة عنصراً هاماً من الطب الوقائي ، وهو أحسن طريقة لعلاج الأمراض التى تسبب بعدم الاحتياط بالنظافة ، فنرى الدول المتحضرة ومنظمات الصحة العالمية تبذل جهداً كبيراً على إشاعة أهمية النظافة بمختلف الوسائل الإعلامية في متعددة اللغات العالمية بين الشعوب والأمم في أنحاء العالم .

إن هناك كثيراً من الأمراض المنتشرة في هذا الزمان ما اكتشف علم الطب الحديث علاجها ودواءها ، بل يتحير أمامها بدهشة مع تقدم التكنولوجيا ، وأسبابها الرئيسية الميكروبات التي تنشأ من تلوث الطرق والبيئة حيث يقول الأطباء المعاصرون : إن الدفاع الوحيد لهذه الأمراض الخطيرة هو الاستمساك بالنظافة في البدن واللباس والبيوت والطرق والشوارع والدوام عليها لانعدام المجال لنشأة الميكروبات الحاملة فيروسات الأمراض .

(أ) النظافة وقاية من الأمراض السارية :

من الأمراض التى تحير أمامها رجال علم الطب الحديث والجيل الجديد ومنظمات الصحة العالمية الحميات المتنوعة بأسمائها وكيفياتها

* الأمين العام : رابطة الأدب الإسلامي فرع كيرلا ، الأستاذ المساعد ، كلية الفنون والعلوم لدار الأيتام المسلمين بويناد ، كيرلا ، الهند .

وخطوراتها من الحمى الضنكي (Dengue Fever) ، والحمى الجيغن غنيا (Chicungunea) ، والحمى الطماطمي (Tamato Fever) والالتهاب الياباني (Japanese Encephalitis) ، وحمى الخنازير ومليريا (Malaria) وغيرها . ينشر الحمى الضنكي البعوض الأنثى من جنس الإيدس الإيجيبتي (Aedesegypti) يتسبب للحمى الضنكي فيروس فولورى يتولد من البعوضي الإيدس الإيجبتي [١] .

اكتشف الحمى الضنكي في الأرض سنة ١٧٧٩ – ١٧٨٠م في آسيا وإفريقيا وأمريكا ، والآن قد انتشر إلى معظم الأقطار العالمية . قررت منظمة الصحة العالمية بأن عدد الذين يُصابون بالحمى الضنكي خمسون مليوناً سنوياً [٢] ما اكتشف علم الطب الحديث إلى الآن الدواء للحمى الضنكي إلا إتلاف البعوض الذي يحمل فيروس هذا المرض الخطير ، قد عدته مؤسسة الصحة الهندية علاجاً وحيداً للحمى الضنكي .

يعيش البعوض الإيدس الإيجبتي ما بين ٨ – ٣٢ يوماً ، ويبيض في الماء النظيف المكدر في الكيس البلاستيكي وبقايا الأغلاف البلاستيكية والأواني المنكسرة المتروكة والحياض الصغيرة في حوالى الديار وفي الطرق والشوارع وتتولد منها البعوضات ، أما الطريق الوحيد لمنع تبييض البعوضات وتولدها فهو انعدام المواضيع المذكورة وإلقاء المسحوق القاصر Bleaching Powder في البئار والحياض المشروبة [٣] .

والذي يتضح من المعلومات السابقة المنشورة في الكتب والمنشورات الحكوميتين أن معظم هذه الأمراض من الحمى الضنكي (Dengue Fever) والحمى الجيغن غنيا (Chicungunea) والحمى الطماطمي (Tamato Fever) والالتهاب اليباني (Japanese Encephalitis) ومليريا (Malaria) وغيرها (بعضها لا علاج لها) يسبب انتشارها عدم النظافة حتى أجمعوا على أن الحل الوحيد لها والوقاية الفريدة منها الاعتناء بالنظافة التي نزلت بتشجيعها السورة الثانية من القرآن الكريم كما وصفها الحديث الشريف بشطر الإيمان .

---

[١] Pakarchaviyadikall Book letter, Published by Department of Helth Science, Kerala state, Thiruvananthapuram

[٢] المرجع نفسه .

[٣] المرجع نفسه .

(ب) النظافة في القرآن :

اهتم القرآن الكريم والحديث الشريف بالنظافة اهتماماً بالغاً لا مثيل له في تاريخ الكتب والأديان والأقوام ، فقد نزلت السورة الأولى القرآنية براية العلم والمعرفة حيث قال الله تعالى : (اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذي خَلَقَ ، خَلَقَ الإنسان مِنْ عَلَق) [1] ، جاءت السورة الثانية برسالة الطهارة والنظافة ، حيث قال تعالى : (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ) [2] .

علاوة على ذلك كفى برهاناً ودليلاً على أهمية النظافة من وجهة نظر القرآن المجيد قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) [3] ، وقال أيضاً : (لَّمَسْجِدٌ أسس عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ) [4] .

المنزلة العظيمة التي أتاحها الله جل وعز للذين يلازمون الطهارة والنظافة هي محبة الله جل جلاله ومودته المباركة ؛ ما أسعد هذه المنزلة ؟ وما أعظمها عند المؤمن ! أية منزلة أكبر من هذه الدرجة الإلهية ؟ التى ينالها الإنسان المسلم في الدنيا والآخرة . وهي أقصى غاية يرغبها الإنسان المسلم ويرجوها منزلة ودرجة .

ومعنى الآية الكريمة : الله سبحانه وتعالى يحب الناس الذين يغسلون أبدانهم ويستحمون وينظفون ثيابهم ويطهرون آنيتهم ويكنسون ديارهم ويهتمون بشؤون النظافة والطهارة من غيرها ؛ ولا يحب الله الذين لا يطهرون أسنانهم وأبدانهم ولا يغسلون ثيابهم وآنيتهم ولا ينظفون ديارهم وبيئاتهم وغيرها مما يتعامل معها الإنسان .

(ت) النظافة في الحديث :

اهتم الحديث النبوي أيضاً بالنظافة اهتماماً كبيراً ؛ كفى لمعرفة مكانته العالية قول النبي الحبيب صلى الله عليه وسلم : " الطهور شطر الإيمان " [5] .

مفهوم الحديث إذا كانت النظافة نصف الإيمان فمن لم يعتن

---

[1] سورة العلق : ١ – ٢ .
[2] سورة المدثر : ٤ .
[3] سورة البقرة : ٢٢٢ .
[4] سورة التوبة : ١٠٨ .
[5] صحيح مسلم ، رقم الحديث : ٣٢٥ .

بأمر النظافة يكون فاقد نصف الإيمان فلا يتم إيمانه ولا يكمل إسلامه ، كفيٍ لفهم أهمية النظافة في الحديث اعتناء علماء الحديث بالنظافة ، عنايةً خاصةً حيث إنهم أفردوا باباً خاصاً للنظافة في كتبهم الحديثية .

علاوةً على ذلك يجد الباحث أمرين فقط في الحديث عدهما النبي صلى الله عليه وسلم نصف الإيمان هما الطهر المذكور والصبر " الصبر نصف الإيمان " [1] لكليهما علاقة وثيقة بالصحة البشرية ، كما أن الصبر ينبغي للصحة النفسية ، كذلك الطهر لابد للصحة الجسمية أيضاً .

يعلم القرآن والحديث بأن الله سبحانه وتعالى لا يقبل من الناس الصلاة والعبادة بدون طهارة النفس والجسم والثوب والمكان حيث أمرهم أن يغسلوا أعضاءهم المكشوفة بالماء الطهور خمس مرات على الأقل يومياً بدون أي سبب تلوث ؛ وإذا تلوث أي عضو أو جانب منهم فعليهم أن يزيلوه بالماء الصافي حتى لا يبقى لونه وطعمه وريحه فيه .

(ث) الإنذار عن الميكروبات :

يقول أحمد شوقي الفنجري أستاذ علم الطب الوقائي وصحة البيئة في هيئة الأمم المتحدة وجامعة الكويت سابقاً عن النظافة التي يقدم القرآن والحديث باستخدام الاصطلاحات الحديثة لاصطلاحات قرآنية وحديثية حيث يقول : " الإسلام أول مبدأ عقائدي ، بل هو أول نظام علمي عرفته الإنسانية يأمر بالتعقيم ، ويحارب التلوث ، فقد أطلق الإسلام على كلمة التعقيم اصطلاح الطهارة ، والمقصود بها خلو الشيئ من الميكروبات أو المواد الحاملة للميكروبات ، وأطلق على الشيئ الملوث أو الحامل للميكروبات كلمة النجاسة . ويشترط الإسلام لإزالة هذه النجاسة إزالة الميكروب ، ولكي تضمن إزالته فهو يشترط عليك أن تزيل لون النجاسة ورائحتها وطعمها أيضاً ، وبذلك يكون الإسلام أول من نبه إلى أن تغير اللون والرائحة والطعم دليل على وجوب ميكروب حتى يتفاعل ، أما المواد النجسة التى أشار إليها الإسلام والتي قد تحمل الميكروبات فمنها : القيح والقيئ والبول والبزار والدم والمذي والخمر والمسكرات والكلب والخنزير وكل شيئ عفن كبقايا الحيوان الميت أو الحي " [2] .

---

[1] شعب الإيمان للبيهقي ، رقم الحديث : ٤٧ .

[2] د . أحمد الفنجري ، الطب الوقائي في الإسلام ، ص ١٧ و ١٨ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

يفسر الدكتور الفنجري الخبث والخبائث اللذين ورد ذكرهما في الحديث النبوي للذكر عند دخول الخلاء : " اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث" [1] بالميكروبات والطفيليات حيث إنه يقول [2] : " وفي ذلك إشارة واضحة لا تحتاج إلى مزيد من التفسير إلى الميكروبات التي تعيش تحت الأظفار كالتيفود والدوسنتاريا أو إلى بيض الديدان (كالإكسورس) وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " إذا توضأ العبد فمضمض خرجت خطاياه من فيه ، فإذا استنشق خرجت الخطايا من أنفه ، فإذا غسل وجهه خرجت الخطايا من وجهه ، حتى تخرج من تحت أشفار عينيه ، فإذا غسل يديه خرجت الخطايا من يديه ، حتى تخرج من تحت أظفار يديه ، فإذا مسح رأسه خرجت الخطايا من رجليه ، حتى تخرج من تحت أظفار رجليه ، ثم كان مشيه إلى المسجد والصلاة نافلةً " [3] .

فإن كلمتي الرجس والشيطان القرآنيتين كنايتان عن الميكروب والطفيل عند الأستاذ الفنجري في الآيتين التاليتين [4] .

قال الله تعالى : (قل لاَّ أَجدُ فِي مَا أوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إلا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أودَمًا مَّسْفُوحًا أو لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أوفِسْقًا أهل لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) [5] .

وقال تعالى : (إِذ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم به وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشيطان وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ به الأقدام) [6] .

إن في الكتب الفقهية على مختلف المذاهب والمؤلفات الإسلامية أبواباً وفصولاً تتناول تنظيف الجسم والطعام والشراب واللباس والإناء والبيت والمكان والشارع والماء والبيئة كلها ألفت على أساس نظرية القرآن والحديث إلى النظافة .

يقول العالم بنتام الإنجليزي : " إن من واظب على الطهارة الشرعية في الدين الإسلامي خلا ظاهره من الذنوب وبرئت نفسه من العيوب ، ولقد

---

[1] صحيح البخاري ، رقم الحديث : ١٣٩ .
[2] د . أحمد الفنجري ، الطب الوقائي في الإسلام ، ص ١٨ و ١٩ .
[3] موطأ الإمام مالك ، رقم الحديث : ٥٥ .
[4] د . أحمد الفنجري ، الطب الوقائي في الإسلام ، ص ١٩ .
[5] سورة الأنعام : ١٤٥ .
[6] سورة الأنفال : ١١ .

استقريتُ المجرمين الذين جمعتهم السجون فلم أر فيهم إلا قذر الجسم ووسخ الثياب " [1] .

تشتمل النظافة التي يتحدث عنها القرآن والحديث على تطهير المنفذين والأسنان والفم والأنف والأيدي والأرجل والشعر والرأس والثياب والطعام والشراب ومصادر المياه ونظافة البيوت والشوارع قد ينطلق هذا الباب خلال هذه الجوانب التطهيرية من الكتاب والسنة .

نظافة الأبدان :

الاستنجاء :

الاستنجاء هي تنظيف المنفذين قبلاً ودبراً عقب التبول والتغوط ، ولهذه العملية فائدة طبية وقائية عظيمة ، فقد أثبت الطب الحديث أن النظافة الذاتية لتلك الجوانب تقي الجهاز البولي من الالتهابات الناتجة عن تراكم الميكروبات والجراثيم كما أنها تقي الشرج من الاحتقان ومن حدوث الالتهابات والدمامل وفي حالة المرض خصوصاً لمرضى السكر أو البول السكري ، لأن بول المريض يحتوي على كمية كبيرة من السكر ، فإذا بقيت آثار البول يجعل العضو عرضةً للتقيح والالتهابات ، وقد تنتقل الأمراض في وقت لاحق إلى الزوجة عند المباشرة وقد يؤدي إلى عقم تام [2] .

أثبت علم الطفيليات أن الاستنجاء خير وسيلة للحفظ على الصحة من انتشار الأمراض الطفيلية للآخرين وقطع سبل العدوى من إصابة لغيره كما أن الاستنجاء في مكان خاص بعيد عن ظل الناس وبعيد عن الترع والقنوات يقطع دورة حياة الديدان والطفيليات المختلفة ، وبذا يتم الحد من انتشار العدوى ، ويمكن القضاء على الطفيليات ويسهل الشفاء من الأمراض الطفيلية [3] .

وفي قريب الزمان بدأت طبقة مثقفة من غير المسلمين تقلد الاستنجاء الإسلامي في أنحاء العالم قد جربه كثير من الإخوان الهندوس رجالاً ونساءاً ويواظبون عليه لاسيما السيدات المثقفات .

---

[1] باقر شريف القريشي ، النظام التربوي في الإسلام ، ص ٣١٢ .

[2] الإعجاز العلمي ، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة المطهرة ، ص ٩٢٦ ، مكتبة ابن جرير ، دمشق .

[3] المرجع نفسه : ٩٢٦ .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن عامة عذاب القبر من البول فتنزهوا منه " [1] ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : " ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من غائط قط إلا مس ماء " [2] .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : – تعلم نساء المسلمين – " مرن أزواجكن أن يستطيبوا بالماء فإني أستحييهم فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يفعله " [3] .

اليد اليسرى للاستنجاء :

من إعجاز الحديث النبوي بأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر الناس بتناول اليد اليسرى للطهارة وإزالة النجاسة حتى تكون اليد اليمنى المخصصة للطعام طاهرة نقية ، وذلك لأن بيوض الطفيليات الموجودة في البراز يمكن أن تبقى بين ثنايا الجلد وتحت الأظفار رغم غسل اليدين ، وجدير بالذكر غسل اليد بعد التطهر في السنة النبوية . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا استطاب أحدكم فلا يستطب بيمينه ليستنج بشماله " [4] .

التطهير بالمنديل الورقي :

التطهير بالمنديل الورقي شائع في هذا الزمان وهو مستورد من البلدان الغربية ، يستطيع الدارس أن يقول بأنه جائز في وجهة نظر القرآن والحديث لأن النبي صلى الله عليه وسلم أجاز بالتطهير من الحجر والتراب ، فإن هذا المنديل الورقي يقوم مقام الحجر والتراب بمص النجس ، أما أفضل صورة الاستنجاء عند الفقهاء التطهير أولاً بالحجر ، أو بما يقوم مقامه بتجفيف النجس ومصه ثم بالماء الطهور .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا ذهب أحدكم إلى الغائط فليستطب بثلاثة أحجار فإنها تجزئ عنه " [5] .

(للحديث بقية)

---

[1] معجم الكبير للطبراني ، رقم الحديث : ١٠٩٤١ .
[2] سنن ابن ماجه ، رقم الحديث : ٣٥٤ .
[3] سنن الترمذي ، رقم الحديث : ١٩ .
[4] سنن ابن ماجه ، رقم الحديث : ٣١٢ .
[5] سنن أبو داود ، رقم الحديث : ٤٠ .

دور الوالدين في تربية الأبناء
وتنمية تعليمهم وأخلاقهم النبيلة

الباحث عبد الرشيد غازي*

إن الله سبحانه وتعالى خلق الكون بنظام محكم وحكمة بليغة ، وجعل لكل شيئ في الحياة هدفاً ومغزىً . ومن أعظم هذه الأهداف هو تربية الأطفال ، حيث يعدّ الطفل أمانة في أعناق الوالدين ، وواجباً عظيماً يتطلب منهما الرعاية والعناية . وقد جعل الله الوالدين مسؤولين عن تربية أبنائهما ، إذ إنّهما يمثلان القدوة الأولى والمثل الأعلى في حياة الطفل .

في الإسلام ، يتمحور مفهوم التربية حول بناء شخصية متكاملة تُغرس فيها القيم والأخلاق الحميدة ، وتعليم الطفل مبادئ الدين الإسلامي وتعزيز الصلة بالله . فالوالدان هما أول من يُدخل في قلوب أبنائهم حبّ الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وهما اللذان يزرعان في نفوسهم القيم الإنسانية النبيلة مثل الصدق ، والرحمة ، والتعاون .

إن هذه المسؤولية ليست مجرد واجب اجتماعي ، بل هي عبادة يُثاب عليها الوالدان . ينبغي أن يسعى الآباء والأمهات إلى تربية أبنائهم على أساس من التعاليم الإسلامية ، وضمان أن ينشأوا في بيئة صحية تعزز من تطورهم الفكري والروحي ، وتجعل منهم أفراداً نافعين لمجتمعاتهم .

بهذا ، نؤكد أن تربية الأطفال ليست مجرد واجب ، بل هي رحلة تتطلب الصبر ، والحكمة ، والإخلاص ، وهي السبيل لبناء جيل يساهم في بناء الأمة وتقدمها .

أهمية التعليم في الإسلام :

حثّ الإسلام على طلب العلم ، واعتبره فريضة على كل مسلم ومسلمة ، قال الله تعالى : (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)[1] . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : " طَلَبُ الْعِلْمِ

* الجامعة العالية بكلكته .

[1] المجادلة : ١١ .

فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ " [1] . يتجلى من هذا الحديث أن العلم واجبٌ على كل مسلم ، ويبدأ هذا الواجب من الأسرة ، حيث يجب على الوالدين غرس حب العلم في نفوس أبنائهم منذ الصغر .

(١) التعليم البدائي : يبدأ التعليم الأساسي في الأسرة ، فالوالدان هما أول معلمين لأبنائهما ، ويجب عليهما تعليمهم المبادئ الأساسية مثل القراءة والكتابة والحساب في جو من المحبة والصبر . قال الله تعالى : (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً) [2] ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : " مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْماً ، سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقاً إِلَى الْجَنَّةِ " [3] . وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : " إنما العلم بالتعلم ، وإنما الحلم بالتحلم " [4] .

(٢) التعليم الأخلاقي : ينبغي على الوالدين غرس القيم الإسلامية كالأمانة والصدق والتعاون في نفوس أبنائهم ، وذلك من خلال تقديم نماذج عملية من حياتهم اليومية . قال الله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا) [5] ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلاقاً " [6] . وقال ابن القيم رحمه الله : " أرباب العقول لا ينظرون إلى الحسن والقبح ، ولكن ينظرون إلى النفع والضرر ، فالصحيح هو الذي يتبع النفع ويجتنب الضرر " [7] .

(٣) التعليم خارج المنهج : يمكن للوالدين تشجيع أبنائهم على ممارسة الأنشطة الإبداعية والرياضية لتعزيز التفكير الإبداعي وتنمية المهارات الحياتية . قال الله تعالى : (وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) [8] ، وقال

---

[1] أخرجه ابن ماجه (٢٢٤) .

[2] طه : ١١٤ .

[3] مسلم ، صحيح مسلم (٢٦٩٩) [صحيح] .

[4] العراقي ، تخريج الإحياء للعراقي ٢١٨/٣ وشعيب الأرنؤوط ، تخريج منهاج القاصدين (١٨٢) في سنده علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف . أخرجه البخاري معلقاً مختصراً قبل حديث (٦٨) ، وأخرجه موصولاً ابن أبي الدنيا في " الحلم " ، ص ٢٠ ، والخطيب في .

[5] النساء : ٥٨ .

[6] البخاري ، صحيح البخاري (٣٥٥٩) [صحيح] .

[7] أبو الدرداء ، صحيح البخاري ، ترجمة محمد محسن خان ، دار السلام للنشر ، ١٩٩٧م .

[8] الذاريات : ٢١ .

النبي صلى الله عليه وسلم : " إنّ اللّهَ يُحِبُّ إذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلاً أَنْ يتْقِنَهُ " [1] . ويقول الفيلسوف اليوناني أفلاطون : " التعليم هو أشرف الحرف ، لأنه يتعامل مع العقل " . ويقول الفيلسوف الصيني كونفوشيوس : " الأسرة هي الجذر العميق لكل فضيلة " ، وهذا يعكس الأهمية الكبرى للأسرة في تنشئة الجيل القادم .

أهمية التعليم الأخلاقي :

الأخلاق هي جوهر الإنسان ، وهي التي تميز المؤمن عن غيره . فالأخلاق الفاضلة أساس بناء المجتمع المسلم المتماسك . وقد حثّ النبي صلى الله عليه وسلم على التحلي بالأخلاق الحسنة في كثير من الأحاديث النبوية الشريفة . ويقول الحسن البصري رحمه الله : " المؤمن يأمر بالمعروف ويعمل به ، وينهى عن المنكر ويجتنبه ، فهو داعية ومرب بفعله قبل قوله " .

(١) الصدق والأمانة : الصدق من الصفات الأساسية التي يجب غرسها في نفوس الأطفال ، فهو يخلق بيئة من الثقة والتفاهم . قال الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادقينَ) [2] . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ ، فَإِنّ الصِّدْقَ يهْدِي إِلَى الْبِرّ ، وَإِنّ الْبِرّ يهْدِي إِلَى الْجَنّةِ " [3] . وقال أبو بكر رضي الله عنه : " الصدق أمانة والكذب خيانة " [4] .

(٢) الاحترام والتواضع : يجب تعليم الأطفال كيفية احترام الآخرين ، بدءاً من احترام الوالدين إلى احترام المعلمين والأقران . قال الله تعالى : (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلّا تَعْبُدُوا إِلّا إِيّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً) [5] ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لَيْسَ مِنّا مَنْ لَمْ يُوَقِّرْ كَبِيرَنَا وَيرْحَمْ صَغِيرَنَا " [6] ، ويقول الفضيل بن عياض رحمه الله : " التواضع أن تخضع للحق وتنقاد له ، ولو سمعته من صبيٍّ قبله " [7] .

(٣) الصبر والرحمة : الصبر والرحمة هما من صفات المؤمن القوي ،

---

[1] الألباني ، السلسلة الصحيحة ١١١٣ .
[2] التوبة : ١١٩ .
[3] مسلم ، صحيح مسلم (٢٦٠٧) [صحيح] ، أخرجه البخاري (٦٠٩٤) ، ومسلم (٢٦٠٧) .
[4] تخريج مسند أبي بكر (١٥٩/١) ، إسناد صحيح .
[5] الإسراء : ٢٣ .
[6] الترمذي (١٩٢١) ، وأحمد (٢٣٢٩) .
[7] الإحياء ٣٦٢/٣ .

يجب تعليم الأطفال الصبر في مواجهة الصعوبات ، والرحمة في التعامل مع الآخرين . قال الله تعالى : (وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ) [1] ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " الرّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرّحْمَنُ ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السّمَاءِ " [2] . ويقول الفيلسوف سقراط : " رحم الله من يستطيع أن يتحلى بالصبر في كل حين " [3] .

مسؤوليات الوالدين :

إن تربية الأبناء ليست مجرد توفير احتياجاتهم المادية فقط ، بل تشملٍ تقديمٍ التوجيه السليم وغرس القيم النبيلة والحرص على أن يكونوا قدوة حسنة لأبنائهم . يقول الفيلسوف أرسطو : " العقل الذي يعلمه الوالدان لأبنائهما هو أعظم هدية يقدمونها لهم " .

(١) التوجيه الصحيح : على الوالدين توجيه أبنائهم نحو السلوك الحسن ، والابتعاد عن المحرمات ، باستخدام الحكمة والموعظة الحسنة . قال الله تعالى : (يَا بُنَيِّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ) [4] ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " كُلُّكُمْ رَاعٍ ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيّتِهِ " [5] . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : " علّموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل ، وغذوهم ما يطيب من الشعر " .

(٢) القدوة الحسنة : يجب أن يكون الوالدان قدوة حسنة في السلوك والأخلاق لأبنائهم ، لأن الأطفال يميلون إلى تقليد والديهم في كل شيئ . قال الله تعالى : (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) [6] . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ " [7] ، وقال سفيان الثوري رحمه الله : " من كانت فيه خَصلة من خِصال الخير فليحمد الله ، ومن كانت فيه خصلة من خِصال الشر فليتعجل التوبة " .

(٣) الاستماع والدعم : يجب على الوالدين أن يستمعا لأبنائهم وأن يدعموهم في اتخاذ القرارات ، مما يعزز ثقتهم بأنفسهم . قال الله تعالى :

---

[1] لقمان : ١٧ .

[2] أخرجه أبو داود (٤٩٤١) ، والترمذي (١٩٢٤) ، وأحمد (٦٤٩٤) .

[3] تعريباً .

[4] لقمان : ١٧ .

[5] البخاري ، صحيح البخاري (٢٤٠٩) [صحيح] ، أخرجه مسلم (١٨٢٩) باختلاف يسير.

[6] الأحزاب : ٢١ .

[7] ابن جرير الطبري ، مسند عمر (٤٠٨/١) ، إسناده صحيح .

(وَأَمْرُهُمْ شُورَى بينهُمْ) [1] ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " مَنْ لا يرْحَمْ لايُرْحَمْ " [2] ، وقال الإمام الشافعي رحمه الله : " إذا تكلمت فأعلم أن الله يسمعك ، وإذا نظرت فأعلم أن الله يراك ، وإذا تفكرت فأعلم أن الله يعلم ما في قلبك " .

دور الوالدين في تربية الأبناء من منظور العلوم الحديثة :

يُعتبر دور الوالدين في تربية الأطفال مسؤولية كبيرة تتطلب الوعي والمعرفة بمختلف جوانب النمو السليم . تشير الأبحاث الحديثة إلى أهمية التربية الإيجابية كوسيلة فعّالة لتعزيز المهارات الاجتماعية والعاطفية لدى الأطفال . تتضمن هذه المهارات تقدير الذات ، والتعبير عن المشاعر ، واتخاذ القرارات . لذلك ينبغي على الوالدين وضع قواعد واضحة وتوقعات سلوكية ، مع تجنب العقوبات البدنية ، حيث أظهرت الدراسات أن هذه العقوبات تؤدي إلى نتائج سلبية على نمو الطفل [3] .

كما أن التواصل الفعّال بين الوالدين والأبناء يُعتبر أحد الأسس الضرورية في التربية الحديثة . يُنصح الوالدان بالاستماع لأبنائهم والتعاطف مع مشاعرهم لتعزيز قدرتهم على التعبير عن أنفسهم بشكل صحي . يساعد التفاعل التبادلي بين الوالدين والأطفال على تحسين مهارات التواصل ، مما يعزز تطور مراكز اللغة في الدماغ [4] .

في سياق آخر ، يجب أن يُدرك الوالدان أنهما قدوة حسنة لأبنائهما ، يتعلم الأطفال من خلال تقليد سلوك والديهم ، لذا من الضروري أن يُظهر الوالدان تصرفات إيجابية واحتراماً للآخرين . الأطفال الذين ينشأون في بيئة مليئة بالتفاهم والإيجابية يكون لديهم قدرة أكبر على التكيف مع التحديات النفسية والاجتماعية [5] .

أحد الجوانب الهامة الأخرى هو تعزيز استقلالية الأطفال وتحملهم المسؤولية . يجب على الوالدين تشجيع أطفالهم على اتخاذ قراراتهم الخاصة وتحمل تبعاتها ، مما يُسهم في تعزيز ثقتهم بأنفسهم واستقلاليتهم .

---

[1] الشورى : ٣٨ .

[2] البخاري ، صحيح البخاري (٥٩٩٧) ، ومسلم (٢٣١٨) .

[3] (Gershoff, ٢٠١٣) .

[4] (Sroufe, ٢٠٠٥) .

[5] (Bandura, ١٩٧٧) .

يُشير نظام التعليم المونتيسوري إلى أهمية إعطاء الأطفال حرية استكشاف محيطهم والتعلم من خلال التجربة والخطأ [١] .

وأخيراً ، يجب على الوالدين الانتباه إلى الصحة النفسية لأبنائهم ومساعدتهم في التعامل مع مشاعرهم بشكل صحي . تشير الأبحاث إلى أن الصدمات النفسية التي لا يتم التعامل معها قد تؤثر سلباً على شخصية الطفل وحياته المستقبلية . لذلك ، يُنصح بالتوجه إلى المختصين عند الحاجة لضمان الصحة النفسية للأطفال [٢] .

بالجملة ، يتطلب دور الوالدين في تربية الأبناء الوعي بأهمية التواصل الإيجابي والقدوة الحسنة وتوفير بيئة داعمة تساعد في نمو الطفل بشكل شامل ، بما في ذلك الجوانب النفسية والعاطفية والاجتماعية .

دراسة مقارنة بين الإسلام والعلوم الحديثة في تربية الأولاد :

التربية في الإسلام :

حثَّ الإسلام على طلب العلم ، واعتبره فريضة على كل مسلم ومسلمة ، حيث قال الله تعالى : (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) [٣] .

وفي الإسلام ، يُعد الوالدان هما المصدر الرئيسي لتعليم الأبناء القيم الأخلاقية والدينية . يقول الله تعالى : (يَا أَيهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا) [٤] ، مما يبرز أهمية دور الأسرة في حماية الأبناء من السلوكيات السلبية . يعتمد التعليم الإسلامي على مبادئ مثل الصدق والأمانة والرحمة ، حيث يُحث الوالدان على أن يكونوا قدوة لأبنائهم في تطبيق هذه القيم . ومن ثمَّ ، يجب على الوالدين غرس حب العلم في نفوس أبنائهم منذ الصغر .

التربية وفق العلوم الحديثة :

تشير الأبحاث الحديثة إلى أهمية التعليم المبكر وتأثيره على تطوير مهارات الأطفال الاجتماعية والعاطفية . يُظهر العديد من الدراسات أن التربية الإيجابية ، التي تعتمد على التشجيع والدعم ، تؤدي إلى نتائج

---

[١] (Montessori, ١٩٦٦) .

[٢] (Miller, ١٩٩٠) .

[٣] المجادلة : ١١ .

[٤] التحريم : ٦ .

إيجابية في الأداء الأكاديمي والتفاعل الاجتماعي [١] . كما تؤكد النظرية الاجتماعية للتعلم [٢] أن الأطفال يتعلمون من خلال ملاحظة وتقليد سلوك الوالدين . بالإضافة إلى أن أهمية التربية الإيجابية كوسيلة لتعزيز المهارات الاجتماعية والعاطفية لدى الأطفال ، حيث تُسهم في تقدير الذات والتعبير عن المشاعر [٣] .

التعليم البدائي :

يبدأ التعليم في الأسرة ، فالوالدان هما أول معلمين للطفل . يجب عليهما تعليم أبنائهما الأساسيات مثل القراءة والكتابة والحساب في جو من المحبة والصبر . وفي هذا السياق ، وأظهرت الدراسات أن التعليم المبكر يُسهم في تحسين الأداء الأكاديمي والاجتماعي للأطفال [٤] .

التعليم الأخلاقي :

يجب على الوالدين تعليم أبنائهما القيم الإسلامية مثل الأمانة والصدق ، وذلك من خلال تقديم نماذج حية من سلوكياتهم اليومية . وتشير الدراسات إلى أن الأطفال يتعلمون من خلال تقليدٍ سلوك والديهم ، فكان من الضروري أن يُظهر الوالدان تصرفات إيجابية [٥] .

التعليم خارج المنهج :

يمكن للوالدين تعليم أبنائهما من خلال الأنشطة الإبداعية والرياضية ، مما يُعزز التفكير الإبداعي وتنمية المهارات الحياتية . وقد أشار نظام التعليم المونتيسوري إلى أهمية إعطاء الأطفال حرية استكشاف محيطهم والتعلم من خلال التجربة والخطأ [٦] .

أهمية التعليم الأخلاقي :

تعَدُّ الأخلاق جوهر الإنسان ، وهي التي تميز المؤمن عن غيره . حثَّ النبي صلى الله عليه وسلم على تحسين الأخلاق في الكثير من الأحاديث ، حيث يُعتبر الصدق من الصفات الأساسية التي يجب غرسها في نفوس الأطفال ، فهو يُعزز الثقة والتفاهم بين الأفراد .

---

١ (Sroufe, ٢٠٠٥) .
٢ (Bandura, ١٩٧٧) .
٣ (Gershoff, ٢٠١٣) .
٤ (Sroufe, ٢٠٠٥) .
٥ (Bandura, ١٩٧٧) .
٦ (Montessori, ١٩٦٦) .

مسؤوليات الوالدين :

إن تربية الأبناء ليست مجرد توفير الاحتياجات المادية فقط ، بل تشمل تقديم التوجيه السليم وغرس القيم النبيلة . يتوجب على الوالدين توجيه أبنائهم نحو السلوك الحسن والابتعاد عن المحرمات ، وذلك باستخدام الحكمة والموعظة الحسنة . كما يجب أن يكون الوالدان قدوة حسنة في السلوك والأخلاق ، حيث يتعلم الأطفال من خلال تقليد والديهم .

الخاتمة :

يُعتبَر الوالدان المسؤولين الأساسيين عن تنشئة أبنائهم وتوجيههم نحو التعليم السليم والأخلاق الفاضلة . إن التربية الصحيحة التي تتماشى مع تعاليم الإسلام تساهم في بناء جيل قادر على مواجهة تحديات الحياة بقوة وثقة . ومن خلال الاستدلال بالقرآن والسنة ، وأقوال السلف الصالح بالإضافة إلى بعض الأبحاث والدراسات الحديثة يتضح أن دور الوالدين في تنشئة أبنائهم ليس مجرد واجب اجتماعي ، بل هو عبادة يُثاب عليها الإنسان في الدنيا والآخرة . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : " من أراد الدنيا فعليه بالعلم ، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ، ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم " .

المراجع :

١. Gershoff, Elizabeth . "Corporal Punishment in U .S . Public Schools: Legal Precedents and Current Practices ." American Psychologist, vol . ٦٨, no . ٨, ٢٠١٣, pp . ٧٦٣-٧٧٧.

٢. Sroufe, Alan . "Emotional Development: The Organization of Emotional Life in the Early Years ." Cambridge University Press, ٢٠٠٥.

٣. Bandura, Albert . Social Learning Theory . Prentice Hall, ١٩٧٧.

٤. Montessori, Maria . The Absorbent Mind . Holt, Rinehart and Winston, ١٩٦٦.

٥. Miller, Alice . For Your Own Good: Hidden Cruelty in Child-Rearing and the Roots of ./Violence . Farrar, Straus and Giroux, ١٩٩٠.

قضايا مستجدة حول نفقة المطلقة

(الحلقة الثالثة)

د . المفتي محمد مصطفى عبد القدوس الندوي*

والقاعدة الإسلامية : " الضرر لايزال بالضرر [1] ، يؤيده قوله تعالى وقول النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فقال تعالى : (لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِه) [البقرة : ٢٣٣] . وقال النبي الكريم صلى اللّٰه عليه وسلم : " لا ضررَ ولاَ ضرار " [2] .

(٣) ذهاب المطلقة إلى المحكمة الرسمية لنيل النفقة بعد مضي العدة :

وفي العصر الراهن تحكم المحكمة الرسمية في الهند بلزوم نفقة المطلقة على الزوج السابق بعد انقضاء العدة المحددة لها شرعاً ، إلى أن تنكح زوجاً غيره ، أو تموت . ومن المعلوم أن نفقة المطلقة لا تجب على الزوج السابق إلا إذا كانت في العدة وما دامت فيها ، كما سبق مفصلاً مع الدلائل والبراهين . هناك سؤال مهم جداً ينشأ في تلك الخلفية ، وهو : هل يجوز للمطلقة شرعاً أن تذهب إلى المحكمة الرسمية لنيل النفقة ومطالبتها من الزوج السابق ، بعد أن مضت عدتها ؟

والجواب عنه واضح كالشمس في نصف النهار ، وهو أنه لا يجوز لها شرعاً ، ويُعدّ ذهابها إلى المحكمة الرسمية لنيل النفقة ومطالبتها من الزوج السابق بعد أن انقضت عدتها حراماً وخروجاً على الشريعة الإسلامية المطهرة ؛ لأنها تؤثر المحكمة الرسمية الوضعية على المحكمة الشرعية الإسلامية المتاحة من عند اللّٰه تعالى للناس أجمعين للفوز والكمال في الدنيا والآخرة . وهي تأنف وتتكبر عن الخضوع لحكم اللّٰه ورسوله صلى اللّٰه عليه وسلم ، والقرآن الكريم يدعوها إلى الخضوع

* عميد كلية البحث والتحقيق بجامعة العلوم ، غرها – غجرات .

[1] الأشباه والنظائر لابن نجيم المصري : ٨٨/١ .

[2] أخرجه مالك في الموطأ في الأقضية ، برقم : ٢٢٦ ، وابن ماجه في الأحكام ، برقم : ٣٣٤٠ ، والحاكم في المستدرك في البيوع : ٥٧/٢ ، والدارقطني في الأقضية والأحكام : ٢٢٨/٤ .

لحكمهما ويقول لها منادياً : ليس لك الخيرية بعد ما قضى الله ورسوله ولا يجوز لها أن تتجاوز حدود الله ، فيقول : (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً) [النساء : ٦٥] ، (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِيناً) [الأحزاب : ٣٦] ، (تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) [البقرة : ٢٢٩] .

وهي تطلب نفقتها عن طريق غير مشروع ، وتريد أكل أموال الغير بالباطل ، والله منع المؤمنين والمؤمنات عن ذلك فقال : (وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ) [البقرة : ١٨٨] .

وهي تفر من الامتثال بحكم القرآن الكريم الذي هو شفاء ورحمة للمؤمنين والمؤمنات ، وتذهب وتتحاكم إلى الطاغوت ، الذي هو زحمة ومشقة ضخمة ، ولا يزيدها إلا خساراً ؛ لأن الله تعالى قال : (جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ) [الإسراء : ٨٢] ، (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالاً بَعِيداً) [النساء : ٦٠] .

وهي تستنكف من عبودية الله وتستكبر عن تسليم الرأس بقضائه ، قال تعالى منذراً للمستنكف من عقابه الشديد وسوء العقبى : (لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً . يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً) [النساء : ١٧٢ – ١٧٥] .

وهي تترك الصراط المستقيم وتتخذ سبيل الضالين ، تبتغي العزة عند غير الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وتريد النجاة وفضل الله في سبيل غير المؤمنين ، وليس هدفها من الذهاب إلى المحكمة الرسمية الوضعية غير الإسلامية إلا تحصيل عرض الدنيا من طريق غير إسلامي ، والشريعة الإسلامية المطهرة لا تمنع أحداً من كسب المال ونيله إلا تقول له لابدّ أن يكون حلالاً وأن يكون سبيله صحيحاً في الدين الحنيف الذي هو عند الله الإسلام لاغير ؛ فيقول عز وجل : (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ ديناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) [آل عمران : ٨٥] ، (وَمَنْ يُشَاقِقِ

الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً) [النساء : ١١٥] .

وَهَي تدَعُ سبيل الرشد وتنفر من سبيل الخير وتتخذ سبيل الغي والشر وتبتغي فيه الخير ، من أين يأتي الخير لها ؟ ويقول الله تعالى واضحاً صريحاً غير غموض ولا تعقيد : (أَلَمْ نَجْعَل لَهُ عَيْنَيْنِ . وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ . وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) [البلد : ٨ – ١٠] ، (وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً) [الأعراف : ١٤٦] .

وباعتبار الأصل والقاعدة لا حق لها أن تطالب النفقة من الزوج السابق بعد ما انتهت العدة مباشرة ولا بوساطة المحكمة الرسمية ؛ لأن استحقاق المطالبة لها بسبب الزوجية أو العدة ؛ فلا بدّ لاستحقاق المطالبة قيام السبب ، والسبب هو العدة هنا ، هو معدوم .

(٤) حكم قبول المطلقة نفقتها التي قضت لها المحكمة الرسمية بعد انقضاء العدة :

وإن حكمت المحكمة الرسمية الوضعية للمطلقة التي مضت عدتها ، أن ينفق عليها زوجها السابق ما دامت هي حيّةً أو إلى أن تتزوج غيره ، هل يجوز لها أن تأخذ هذه النفقة وتأكلها ؟

والجواب عن هذا أن هذا القضاء غير صحيح ؛ لأنه يصادم القرآن والسنة وأصول الفقه الإسلامي ؛ فهذه النفقة مال خبيث في نظر الإسلام ؛ فلا يجوز لها أن تأخذها وتأكلها ، وإن أخذتها وأكلتها أثمت وتؤاخذ يوم القيامة ؛ لأنها نالت النفقة عن طريق الباطل ، وقد نهى الله تعالى عن تحصيل المال بالباطل ؛ فقال : (وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) [البقرة : ١٨٨] ، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ) [النساء : ٢٩] ، (وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ) [الأعراف : ١٥٧] . وأما الأحاديث فروي عَنْ عَمْرِو بْنِ يَثْرِبِي ، قَالَ : شَهِدْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ بِمِنًى فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ : " لا يَحِلُّ لامْرِءٍ مِنْ مَالِ أَخِيهِ شَيْئٌ إلا مَا طَابَتْ بِهِ نَفْسُهُ " [1] .

وعن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

[1] أخرجه الدارقطني في سننه في البيوع ، برقم : ٢٨٨٣ ، وقال الزيلعي : إسناده جيد ، نصب الراية : ١٦٩/٤ ، وأحمد في مسنده : برقم : ١٥٤٨٨ .

وَسَلَّمَ قال يَوْمِ الْحَجِّ الأَكْبَرِ : " قَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ دِمَاءَكُمْ ، وَأَمْوَالَكُمْ ، كَحُرْمَةِ شَهْرِكُمْ هَذَا ، وَكَحُرْمَةِ بَلَدِكُمْ هَذَا ، وَكَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا " [1] .

وعَنْ أَبِي نَضْرَةَ ، حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ خُطْبَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي وَسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ فَقَالَ : " فَإِنَّ اللَّه قَدْ حَرَّمَ بَيْنَكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ " [2] .

وعَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " لا يَحِلُّ لامْرِئٍ أَنْ يَأْخُذَ مَالَ أَخِيهِ بِغَيْرِ حَقِّهِ " ، وَذَلِكَ لِمَا حَرَّمَ اللَّهُ مَالَ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ [3] .

ومن الأصول أن المال لا يحل أكله إلا إذا كان حلالاً بذاته ، ثم لا بد أن يكون طريق اكتسابه وتحصيله صحيحاً أيضاً في نظر الإسلام ، كما يدل على ذلك قوله تعالى : (وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) [البقرة : ١٨٨] . وفي قضية المبحوث فيها ليس طريق تحصيل النفقة صحيحاً شرعاً كما علم سابقاً . قال القرطبي : " فمن أخذ مال غيره لا على وجه أذن الشرع فقد أكله بالباطل " [4] .

وقد نص الفقهاء في ضوء البراهين السالفة من الكتاب والسنة

---

[1] أخرجه البخاري في الحج ، بَابُ الخُطْبَةِ أَيَّامَ مِنًى ، برقم : ١٧٣٩ ، ومسلم في القسامة إلخ ، بَابُ تَغْلِيظِ تَحْرِيمِ الدِّمَاءِ وَالأَعْرَاضِ وَالأَمْوَالِ ، برقم : ٣٠ – ١٦٧٩ .

[2] أخرجه أحمد في مسنده ، برقم : ٢٣٤٨٩ ، قال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح ، مجمع الزوائد : ٢٦٦/٣ ، رقم : ٥٦٢٢ ، وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " لا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلا بِطِيبِ نَفْسِهِ " ، أخرجه الدارقطني في سننه في البيوع ، برقم : ٢٨٨٥ ، والبيهقي في السنن الكبرى ، بَابُ مَنْ غَصَبَ لَوْحاً فَأَدْخَلَهُ فِي سَفِينَةٍ أَوْ بَنَى عَلَيْهِ جِدَاراً ، برقم : ١١٥٤٥ ، وأبو يعلى الموصلي ، برقم : ١٥٧٠ ، وأحمد في مسنده ، برقم : ٢٠٦٩٥ .

[3] أخرجه أحمد في مسنده ، برقم : ٢٣٦٠٥ ، وابن حبان بلفظ : " لا يَحِلُّ لامْرِئٍ أَنْ يَأْخُذَ عَصَا أَخِيهِ بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ " ، صحيح ابن حبان ، بَابُ بَيَانِ مُشْكِلِ مَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الضِّيَافَةِ مِنْ إِيجَابِهِ إِيَّاهَا وَمِمَّا سِوَى ذَلِكَ ، رقم : ٢٨٢٢ ، قال المحقق شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح ، رجاله ثقات ، رجال الصحيح غير عبد الرحمن بن سعد وهو ثقة ، حاشية مسند أحمد ، رقم الحديث : ٢٣٦٠٥ .

[4] الجامع لأحكام القرآن : ٣٣٨/٢ .

والإجماع على أن المرأة المطلقة رجعيةً كانت أو مبتوتةً ، لها النفقة والسكنى مادامت في العدة ، كما تقدم مفصلاً مع الدلائل والبراهين ، وإذا مضت مدة العدة لا ينفق الزوج عليها ولو طالبته بذلك [1] ؛ لأن النفقة منوطة بالعدة ، والعدة قد مضت ، فلا نفقة لها بعدها . قال المفسر الكبير أبو بكر الجصاص في تفسير الآية من سورة البقرة (وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) [البقرة : ١٨٨] : " فأخبر تعالى أن الحاكم وغيره سواء في أنه لايملك أخذ مال أحد ودفعه إلى غيره " [2] ، كما لا يجوز لأحد من المسلمين أخذ مال أحد بدون وجه شرعي [3] ؛ بما أسلفنا من النصوص الشرعية من القرآن والحديث .

(٥) حكم النفقة التي قضتها المحكمة الرسمية للمطلقة بعد انقضاء العدة على الزوج السابق :

وإن حكمت المحكمة الرسمية للمطلقة وجوب النفقة على الزوج السابق بعد مضي مدة العدة المحددة شرعاً ، فما حكم هذه النفقة من منظور الشرع الإسلامي ؟ هل يمكن أن تحمل شرعاً على الإعانة من الحكومة أو الهبة من الزوج ؟

وسبق حكم هذه النفقة شرعاً أنها مال خبيث لا يجوز لها أن تطالبها من زوجها السابق ، ولا ترفع هذه القضية إلى المحكمة الرسمية لأخذها . كذلك لا يجوز أن تذهب إلى المحكمة الرسمية لنيلها وقبولها إن حكمتها لها وفرضتها لها على زوجها السابق .

هناك سؤال مهم في خلفية الهند ، هل توجد صورة للجواز شرعاً أم لا ؟ هل يمكن أن تعدّ تلك النفقة المحكوم بها للمطلقة مساعدة مالية من الحكومة أو أن تعتبر هدية من زوجها السابق لها ؟

ويظهر بعد التأمل العميق بعد المطالعة والدراسة الكثيرة وإمعان النظر فيها أنه لا يمكن شرعاً أن تجعل إعانة مالية من الحكومة لها ؛ لأن الحكومة لا تعطيها ولا تساعدها من مالها ، بل هي تجبر على الزوج

[1] وقد سبقت الدلائل على ذلك ، وراجع أيضاً : الهداية : ٤٤٠/٢ .

[2] أحكام القرآن للجصاص : ٢٤١/٢ .

[3] البحر الرائق : ٣٣/٥ ، الدر المختار ورد المحتار : ٦١/٤ ، النهر الفائق : ١٦٥/٣ ، الشرح الكبير مع حاشية الدسوقي : ٣٥٥/٤ .

وتتعدى عليه أن ينفق عليها كرها ، وهذا ظلم عظيم وجور مبين على الزوج ؛ لأن ذلك تصرف في مال الغير بغير إذنه جبراً ، وقال رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " لا يَحِلُّ لامْرِئٍ أَنْ يَأْخُذَ مَالَ أَخِيهِ بِغَيْرِ حَقِّهِ " ، وَذَلِكَ لِمَا حَرَّمَ اللَّهُ مَالَ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ [1] . وقال الله تعالى : (وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) [البقرة : ١٨٨] ؛ فعلى هذا : من أخذ مال غيره لا على وجه أذن الشرع فقد أكله بالباطل [2] ، وإنها تعتبر إعانة مالية من الحكومة إذا كانت تعطيها إياها من عند نفسها ، وهنا ليس كذلك ، نعم : إن كانت تعطيها الحكومة من مال نفسها ، فلا بأس بأخذها للمطلقة ، وحينئذ تعتبر هي مساعدة مالية تبرّعتها الحكومة عليها ، وأدّت ما كانت فريضة عليها ، ألا ! وهي إعانة الرعية على وجه العموم وخاصة منها البائسين والبائسات .

ولا يصح أن تعتبر تلك النفقة من الزوج السابق وتجعل هدية في حق المرأة المطلقة المذكورة أعلاها ؛ لأن من شروط صحة الهدية والهبة رضاء الواهب والمُهدي ، فلا تصح الهبة والهدية التي وقعت بالجبر والإكراه [3] .

ومن المعلوم أن الهبة والصدقة والهدية والعطية ألفاظها مختلفة معانيها متقاربة ، وكلها تمليك في الحياة بغير عوض [4] ، وبهذا المعنى كلها تشبه البيع ، والبيع لا يصح مكرهاً ، كذلك لا تصح هذه أيضاً مكرهاً . ثم لابدّ في جميعها الرضاء من المالك ، كما يستفاد من قوله تعالى : (إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ) [النساء : ٢٩] ، وقول الرسول

---

[1] أخرجه أحمد في مسنده ، برقم : ٢٣٦٠٥ ، وابن حبان بلفظ : " لا يَحِلُّ لامْرِئٍ أَنْ يَأْخُذَ عَصَا أَخِيهِ بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ " ، صحيح ابن حبان ،بَابُ بَيَانِ مُشْكِلِ مَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الضِّيَافَةِ مِنْ إِيجَابِهِ إِيَّاهَا وَمِمَّا سِوَى ذَلِكَ ، رقم : ٢٨٢٢ ، قال المحقق شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح ، رجاله ثقات ، رجال الصحيح غير عبد الرحمن بن سعد وهو ثقة ، حاشية مسند أحمد ، رقم الحديث : ٢٣٦٠٥ .

[2] الجامع لأحكام القرآن : ٣٣٨/٢ ، البحر الرائق : ٣٣/٥ ، الدر المختار ورد المحتار : ٦١/٤ ، النهر الفائق : ١٦٥/٣ ، الشرح الكبير مع حاشية الدسوقي : ٣٥٥/٤ .

[3] مجلة الأحكام العدلية ، رقم المادة : ٨٦ ، ص ١٦٥ ، مطالب أولى النهى في شرح غاية المنتهى : ٣٩٩/٤ .

[4] المغني لابن قدامة : ٦٣٩/٥ .

صلى الله عليه وسلم : " لا يَحِلُّ لامْرِءٍ مِنْ مَالِ أَخِيهِ شَيْئ إِلا مَا طَابَتْ بِهِ نَفْسُهُ " [1] .

ثم لابدّ أن يكون في ذهن القارئ أنه لا فرق في قضية المبحوث فيها بين المطلقة الغنية والفقيرة البائسة ، وكذلك لا فرق بين المطلقة البائسة التي كفلها أسرتها وعائلتها والمطلقة البائسة التي لم يكفلها أحد ، وليس لها نظام الكفالة ، ووجه عدم الفرق بينهما إكراه الحكومة الزوجَ السابق على إعطاء النفقة للمطلقة التي مضت عدتها بغير حق ؛ لذا إن رضي الزوج السابق بدون إجبار وإكراه أن يصرف عليها إلى مدة موتها أو إلى أن تنكح زوجاً غيره ، أو أن يعطيها نقداً ، أو مالاً أو أيّ شيئ بغير حساب ، لا بأس به ، وذلك يعدّ من جانبه هدية مرضية صحيحة ، ويجوز لها شرعاً أن تقبلها وتستعملها في حوائجها ، يمكن أن تعتبر تلك متاعاً وفضلاً ، كما حثّ عليه القرآن الكريم بقوله : (أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ) [البقرة : ٢٣١] ، (وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ) [البقرة : ٢٣٧] .

والمطلقة البائسة الفقيرة التي لها نظام الكفالة في الإسلام ، فليس معنى ذلك أن تلقى مؤونة كفالتها على كتف الزوج بدون رضاه ، وبدون ضابطة وقاعدة معقولة ، ومثلها يوجد كثير من الفقراء الآخرين من الذكر والأنثى ، لا يكفله أحد من الناس ولا الحكومة ولا اللجنة الخيرية الرسمية وغير الرسمية . والحاصل أنه يعمل في قضية المبحوث فيها أي نفقة المطلقة البائسة الفقيرة بنظام النفقة المقرر في الإسلام حسب المراحل والدرجات على أفراد أسرتها وعلى بيت المال واللجنات الخيرية ، وآخرها وأدناها وليس بعدها أي درجة ، وهي التسوّل على الطرق والشوارع وعتبات البيوت والدكاكين .

وفي تلك الخلفية يجب من منظور الشرع الإسلامي على المجتمع الإسلامي ، وجمعيات خيرية إسلامية ، ولجنات خيرية مسلمة في دول غير إسلامية أن تتكفلها ، وتعينها وتساعدها مساعدة مالية شهرية حسب الاستطاعة ، وتعطي قرضاً حسناً بدون فائدة لمن كانت تريد التجارة من المطلقات ، كذلك يناسب لها أن تنظم وتعقد لها البرنامج للتدريب الفني كالخياطة ، والحاسوب الآلي لثلاثة أشهر أو ستة أشهر مثلاً ، لتقوم على رجلها للتعايش وتتكفل نفقة نفسها لقضاء الحياة .

(للحديث صلة)

---

[1] أخرجه الدارقطني في سننه في البيوع ، برقم : ٢٨٨٣ ، وقال الزيلعي : إسناده جيد ، نصب الراية : ١٦٩/٤ ، وأحمد في مسنده : برقم : ١٥٤٨٨ .

مكتبة شبلي النعماني العامة لندوة العلماء تاريخها ، وذخايرها العلمية

(الحلقة الأولى)

الأستاذ محمد فيضان النغرامي الندوي *

المكتبة أهميتها وحاجتها :

كما يحتاج الإنسان إلى حصون حصينة لصيانة نفسه ، كذلك تكون المكتبات قلاعاً للكتب والمؤلفات ، والمكتبات هي المراكز التي تروي ظمأ عُشاق العلم والتحقيق ، حيث تكون العلوم والفنون متنوعة ، وحيث يُكرس الباحثون لاكتشاف بحوثهم جهودهم ، ويتذوقون بها تذوقاً ، والمكتبة هي منطقة كبيرة وواسعة يحكم فيها تشجيعاً على القلب والعقل ، وتحمل المكتبة في المجتمع مكانة العمود الفقري بالنسبة لأي مؤسسة .

حينما أسس أسلافنا الكبار المخلصون ندوة العلماء في سنة ١٨٩٤م كمدرسة فكرية جديدة لنشر التعليم والحكمة وتدريب العلماء ، في نفس الوقت هجس في أذهانهم إنشاء مكتبة توجد فيها كتب مهمة ومخطوطات نادرة ، وتكون من ميزاتها الرائعة أنها لا تقتصر لأي مذهب فكري معين ، بل يمكن أن تتيح لكل شخص فرصة للاستفادة منها .

أعرب العلامة شبلي النعماني (المتوفى ١٩١٤م) عن هذه الحاجة قائلاً : " إذا كان من حاجيات المسلمين الدينية والوطنية تأسيس مدرسة قومية وكلية وطنية وجامعة وطنية فتأسيس المكتبة أيضاً من حاجياتهم ، إذا كنت تريد الحفاظ على تاريخ المسلمين ودينهم وعلومهم ، فلابد من إنشاء مكتبة تحتوي على مؤلفات نادرة وقيمة في العلوم الدينية ، وأيضاً توجد فيها كتب للعلوم التي تم اختراعها من قبل المسلمين ، ومع ذلك توجد فيها الكتب لكل فن من الفنون التي تشهد زمن رقيها ، وآثاراً توجد فيها للسلف ، ولا تكون هذه المكتبة ملكاً خاصاً لأحد ، بل تكون وقفاً مشتركاً لجميع مسلمي الهند ، يمكن الاستفادة منها بجميع

* أمين مكتبة شبلي ، ندوة العلماء ، لكناؤ (الهند) ، البريد الإلكتروني : shiblinomanilibrary@gmail.com

كتب المصنفين وطلاب العلم " .

ويمكن قراءة هذه العبارة الغالية على أول صفحة لقائمة منشورات دار المصنفين أكاديمية شبلي بأعظم جراه . وتدل مقالات ومناشدات للعلامة شبلي النعماني والشيخ أبو الكلام آزاد في المجلات والصحف في ذلك الوقت ، على أن إنشاء المكتبة وأهميتها لم يكن أمراً فرعياً ، بل كان إنشاؤها جزءاً مهماً من أهداف حركة ندوة العلماء .

إنشاء مكتبة ندوة العلماء :

في فبراير ١٩٠٦م قال الشيخ أبو الكلام آزاد في مناشدة له : قررت ندوة العلماء ضمن إعداد رجال مثقفين يدافعون عن العلوم الإسلامية ، وتريد تأسيس مدرسة عربية لإصلاح أحوال المسلمين الخلقية في البلاد ، لتكون مركزاً كبيراً للعلوم ، تلبية للاحتياجات الدينية مع وجود مركز كبير للعلوم الدنيوية ، فكان من واجباتها الرئيسية إنشاء مكتبة كبيرة للعلوم العربية والدينية ، فالذين يريدون قضاء حياتهم لخدمة الدين والعلم بالانضمام إلى دائرتها العلمية لا يكونون محرومين من الكتب العلمية التي تكون بمثابة أساتذة ومعلمين ، وركزت ندوة العلماء اهتمامها على هذه الحاجة ، وقامت بواجبها إلى حد بتأسيسها ، فعلى الأمة أن لا تدخر وسعاً في تحقيق غاياتها .

وبدأ فعلاً حسب الخطة إنشاء مكتبة عامة في اجتماع شاهجهانفور في ١٨٩٩م ، أولاً أهدى نائب رئيس المديرية الشيخ عبد الرافع نحو ثلاثة آلاف كتاب ، ثم أهدى الشيخ عبد العظيم مأتي كتاب في دورة ندوة العلماء السنوية ببتنه في ١٩٠٠م ، وأهدى الشيخ السيد عبد الغني واحداً ومأة كتاب للتاريخ والأدب ، وظل يتوسع هذا النطاق لكثير من التبرعات العلمية حيناً لآخر ، والجدير بالذكر هنا أن الهدايا العلمية التي حصلت لندوة العلماء كانت للإقطاعي عالمغير محمد خان بهادر من بهوفال ، والسيد حميد الدين رئيس بتنه ، ومحمد يحيى من لكناؤ ، ومن دائرة المعارف حيدر آباد [١] .

ويعرف مدى إخلاص هؤلاء المخلصين أن عدد الكتب في هذه المكتبة أكثر مأتي ألف ، ومنها عدد كبير للكتب التي تم الحصول عليها بالتبرعات ، ووقف لها بعض الأغنياء والأمراء والعلماء مكتباتهم

[١] مجلة الندوة الشهرية ، عدد فبراير ١٩٠٦م

بأكملها ، فتوجد هناك حالياً ثروات علمية وذخاير دينية أمثال مجموعة النواب السيد نواب علي حسن خان ، ومولانا السيد عبدالحي الحسني ، والنواب رشيد الدين المعروف باسم اشي ميان ، والسيد عبد الجليل ، والسيد واجد علي ، ومولانا افتخار الفريدي ، والنواب السيد نجم الحسن ، والنواب السيد ظهور الحسن ، ومكتبة للشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي باسم مكتبة المجمع الإسلامي العلمي ، وبالإضافة إلى الكتب القيمة للدكتور عبد الله عباس الندوي ، والبروفيسور ولي الحق الأنصاري ، والشاه شبير عطا السلوني التي تحتوي على كتب نادرة وقيمة ما بين خطي ومطبوع ، محفوظة في مكتبة ندوة العلماء ، وكثير من الكتب الخاصة لمكتبة العلامة شبلي النعماني الشخصية موجودة فيها ومثبت عليها توقيعه ، وأيضاً مجموعة من الكتب الإنجليزية القيمة للشيخ عبد الماجد الدريابادي موجودة في هذه المكتبة .

الشخصيات التي أهدت مجاميع كتبهم إلى ندوة العلماء :

والأشخاص الذين أهدوا مجموعات كتبهم القيمة لهذه المكتبة هم الشيخ نثار أحمد محامي سيتافور ، والقاضي حامد الله خان من مديرية غوندا ، والشيخ يوسف الزمان الفاروقي ، والمنشي عبد الأحد من كلكتا ، والشيخ عبد الباري الندوي ، والطبيب شكيل أحمد الشمسي ، والشيخ محمد أويس النغرامي الندوي ، والمحدث الشيخ منور علي الرامفوري ، والأستاذ مسرور خان الدهلوي ، والأستاذ عابد سهيل اللكنوي ، والدكتور محمد إقبال الأنصاري من عليجراه ، والدكتور السيد لقمان الأعظمي الندوي ، والصحافي عشرت علي الصديقي اللكنوي ، والصحافي الشيخ محمد عثمان غني الهاشمي اللكنوي ، والشيخ سعيد مرتضى الندوي ، والعلامة أبو محفوظ الكريم المعصومي من كولكاته ، ومجموعة الكتب النادرة والبحوث للماجستير والدكتوراه التي تم إعدادها تحت إشراف البروفيسور إقبال حسين الندوي من حيدر آباد ، والبروفيسور ضياء الحق شودهري السنديلوي ، والأستاذ عبد الودود الأعظمي الندوي ، والبروفيسور رياض الرحمن خان الشيرواني من عليجراه ، وهذه هي الشخصيات التي أهدت مجاميع كتبها إلى هذه المكتبة ، مما زاد أهميتها ورفع شأنها .

فعاليات مكتبة ندوة العلماء :

قبل قرن تقريباً ، عند ما كان عدد الكتب في هذه المكتبة أربعة آلاف فقط ، فحينئذ توجد فيها مؤلفات نادرة وجواهر قيمة ، وهي

كانت موضع إعجابٍ للعلماء والباحثين ، ونظراً لأهميتها كتب الشيخ أبو الكلام آزاد مقالة تعريفاً ببعض المخطوطات لهذه المكتبة .

" كان يعقوب الكندي حكيماً شهيراً في زمن الخليفة مأمون الرشيد ، الذي نال لقب الفيلسوف الأول في الإسلام ، توجد مجموعة رسائله النادرة في مكتبة دار العلوم هذه ، وكذلك رسائل مدينة العلوم أرنيقي ، وتذكره هفت إقليم لأمين رازي من أهم الكتب الخطية في هذه المكتبة ، ويكفي لتعريف كتاب مدينة العلوم بأنه هو من مصادر كشف الظنون الذي يُعتبر قائمةً وحيدةً لعلوم المسلمين وفنونهم ، وتذكرة أرنيقي هي تراجم ممتازة للشعراء بالفارسية ، وهي لم تطبع حتى الآن ، لكنها هي محفوظة في هذه المكتبة .

تدوي أصداء الترجمات العلمية للزمن الأكبري في الهند منذ فترة طويلة ، ولكن لم يُعرف منها شيئ سوى القصة التي تؤثر على قدرتنا السمعية من أبي الفضل ، وتوجد في مكتبة دار العلوم بعض الكتب التي يمكن أن تضيف في معرفتنا كثيراً من العلوم ، وأيضاً الكتب التي تمت ترجمتها من اللغة السنسكريتية خلال زمن شاهجهان ، ووصل إلينا كتاب شامل عن فن الموسيقى " المبسوط " ، بفضل مكتبة دار العلوم ، وهي تكشف لنا نوابغ الموسيقى ، ويمكن خلال قراءتها أن نعرف عن خدمات معظم هؤلاء النبغاء في زمن المغول ، وأهدى السيد أحسن شاه كتابين قيّمين : كتاب لحجة الإسلام الإمام الغزالي " جواهر القرآن " ، وهو كتاب فريد من نوعه ، بالرغم أنه شاع مطبوعاً إلا أنه لا يفي برغبتنا العلمية بسبب نقصه ، وأهدى السيد المذكور نسخةً مخطوطةً لجواهر القرآن وهي واضحة ، والكتاب الثاني هي نسخة ملكية " للقاموس " سجلت عليه ختمات لعدد إمبراطور المغول ، ويمكن قراءة الختم العالمغيري بوضوح " [1] .

اقترح الشيخ صفي الدولة حسام الملك النواب السيد علي حسن خان في كلمته القصيرة بتأسيس تذكار العلامة شبلي النعماني في دار العلوم في المقترح السادس في الدورة الرابعة لندوة العلماء المنعقدة في لكناؤ ١٩١٥م :

" ويرى هذا الاجتماع أنه من المناسب أن يُنشئ مجمع تذكاري لشمس

[1] مجلة الندوة : عدد فبراير ١٩٠٦م .

العلماء الشيخ شبلي النعماني في دار العلوم ، وأحسن صورة له تأسيس مبنى للمكتبة ، وتطلب مساعدات من وجهاء البلد في هذا الأمر بوجه خاص "[1] .

بعد ذلك ألقى تلميذه الشهير العلامة السيد سليمان الندوي (١٩٥٣م) كلمات ، وهي على ما يأتي :

خطبة العلامة السيد سليمان الندوي لإنشاء مكتبة ندوة العلماء :

أيها السادة المحترمون ! ماذا أقول لكم بهذه المناسبة ! الشخص الذي كان مؤسساً لجميع الحركات الوطنية والعلمية حتى الأمس ، اليوم أقوم بتأسيس المكتبة في ذكرى إمام الهند العلامة شبلي النعماني ، الذي وقف كل لحظة من حياته لخدمة العلم والأمة ، وانتقل إلى رحمة الله قبل خمسة أشهر ، وقد خدم العلامة رحمه الله ندوة العلماء بشغف وحماس بالغين ، والواقع أن ذكر خدماته وإنجازاته بهذه المناسبة يُعتبر إهانة لأعماله الجليلة في الأيام الأخيرة ، سعدت الهند في الزمن الأخير بأحد علماء الأمة الذي جاء وخدم الإسلام ، وفاضت روحه في هذا العمل ، وكان اسم الله المقدس على لسانه عند الموت .

أيها الأحبة ! كان العلامة شبلي علماً بأكمله ، عندما ينام فتكون وسادته وسريره كومة من الكتب ، وكان يعيش منفرداً ، ومع ذلك لم يكن وحيداً ، بل مع مأة من أصدقائه الساكتين : وخير جليس في الزمان كتاب .

أيها الأحبة ! لقد نور العلامة قلوبنا بكتبه ومؤلفاته ، فأين نؤسس تذكاره ؟! في القلب ! أين يسكن قلبه ؟ في الكتب ؟ أين مسكن الكتب ؟ في المكتبة ؟ فنحن نؤسس مكتبة لأنها هي مسكن روحه ، المساجد بيت الله ؟ فهل تسكن روح الله هناك ؟ لا ، بل يعيش حبه هناك ، وستكون مكتبتنا أيضاً مسكن حبه .

ومكتبة ندوة العلماء هي من المكتبات النادرة في الهند ، واهتم العلامة رحمه الله اهتماماً كبيراً بجمع كتبها وترتيبها ، واشترى الكتب من جهات شتى ، وأهدى كتباً قيمة من مكتبته الشخصية إليها ، وخلال إدارته تضاعف حجم المكتبة تقريباً ، وكان يشتري كل شهر كتباً جديدة بطرق مختلفة ، ويأخذ الكتب من مكتبة أصدقائه ، وفي أثناء إقامتي بدار العلوم أنا كنت أيضاً أكثر اهتماماً بالمكتبة في جميع

[1] التقرير السنوي الرابع عشر لندوة العلماء في ٣-٤-١٩١٥/٥م ، ص : ٧٥ .

أموري ، ولن أكون مبالغاً إذا قلت فأقول لكم ! إن العلامة كان روح المكتبة ، وكنت أنا يدها ، وجئت بكتب كثيرة من مكتبة سكندر نواز جنغ ، وعماد الملك ، وعماد جنغ ، وحسام الملك ، وعلي حسن خان إلى مكتبة ندوة العلماء ، وللحصول على هذه الكتب سافرت إلى حيدرآباد وبانكيبور وما إلى ذلك ، وجئت بجميع الكتب في زمن العلامة في المكتبة باشترائها ، فلا استغراب إذا قمت اليوم لبيان أهمية إنشاء مكتبة علمية كبيرة تذكاراً له .

أيها الشيوخ والأصدقاء ! من الذي لم يستعد لتقديم الشكر إلى هذا المحسن ؟ فمن لم يشكر الناس لم يشكر الله ، لكن انظروا إلى أنانية الرجل الشحيح فإنه يختار لشكر الآخرين الطريقة التي يحصل منها مكاسبه الشخصية ، هل نحن نشكر العلامة ببناء هذه المكتبة في ندوة العلماء ؟ أو نطلب منه معروفاً جديداً بعد وفاته ، وما هي الهدية التي يمكن للمسافر إلى دار فانية أن يقدمها لأهل دار البقاء ! ندعو الله أن يقبل للعلامة مجموعة أوراق قليلة هذه تسمى المكتبة ، والمبنى من الآجر والحجر ، ويوفقنا بتأسيس تذكار المرحوم .

أيها السادة المحترمون ! انظروا إلى هذا البعد والاتصال أن مدرسة ندوة العلماء موجودة هنا ، ولكن مكتبتها تقع على بُعد ميلين . وهذا سر لافتقار طلاب العلوم العربية بأن لا توجد مكتبة كبيرة في تلك المدرسة التي يدرسون فيها ، وأحياناً يحصلون على كتب دراسية بالسؤال أو الشراء ، وكانت هناك مكتبة ، فهناك يجلس ثعبان على هذه الخزانة ، لا يسمح المدير للطلاب العاديين بالمرور من قربها ، وإن نجاح دار العلوم في الدراسة والعلم وشوق المطالعة لطلابها هو نتيجة هذه المكتبة .

أيها الحفل الحضور ! إن ضرورة وأهمية هذه الحركة واضحة جداً ، ولا داعي لمزيد من المناقشة ، تعالوا نؤسس مكتبةً تذكاراً لاسمه ، وقال الشاعر : لا تبحث عن قبري في مقبرة ، فإن ذكراه في صدور العارفين والرجال الربانيين في نفس الوقت [1] .

وفي هذه المدة تم نشر إعلان عن تأسيس مكتبة .

" هناك حاجة ماسة لإنشاء مكتبة ضخمة في دار العلوم لندوة العلماء "

(للحديث صلة)

---

[1] المرجع السابق : ٧٦ – ٧٨ .

موقف الزمخشري في البلاغة القرآنية : دراسة تحليلية

إعداد : الدكتور محمد نعمان حسن المدني *

إن الهدف الأسمى من دراسة بلاغة القرآن الكريم إثبات المصدر الرباني للقرآن الكريم على أنه أشرف الكتب السماوية ، وقد أنزله الله تعالى على نبيه محمد – عليه الصلاة والسلام – ليكون خاتمة كتب الديانات السماوية ومعجزة الإسلام .

كذلك لا شك أن علم البيان في القرآن الكريم من أدقّ العلوم التي تكشف عن أسرار معاني الآيات الكريمة ما لا يحصى عدداً ولا ينقضي عجباً . وقد أجمع الباحثون على القول بالإعجاز البياني وأن القرآن معجز ببلاغته وأسلوبه وبيانه وتعبيره ، وأنه بهذا يقدّم شهادة عظيمة على مسألة إعجاز القرآن ، وعلى أنه كلام الله عز وجل .

ولذا اهتم المفسرون باستنباط علم البيان القرآني في تفسيرهم بكل اهتمام بالغ . فبهذا الصدد نحاول أن نركز موقف الزمخشري في علم البيان القرآني في تفسيره : دراسة تحليلية حتى تتضح أقوال العلماء عن علم البيان والمعاني في تفسيره الكشاف : " إنه قد ملأ الدنيا وشغل الناس منذ ألّفه مؤلّفه وحتى يومنا هذا " .

(أ) موقفه بعلم البيان القرآني :

التعريف بـ " علم البيان " بمعناه العام :

ذكر الشيخ عودة خليل أبو عودة في كتابه [1] : علم البيان – بمعناه العام – هو " التعبير عما في النفس ، أو عما لدى المتكلم أو الكاتب من أفكار ومشاعر بدرجة عالية من الإفهام والتأثير " . وهذا هو المراد بالبيان في قول النبي صلى الله عليه وسلّم : (إن من البيان لسحراً) .

* أستاذ مساعد ، قسم علوم القرآن والدراسات الإسلامية ، الجامعة الإسلامية العالمية شيتاغونغ ، البريد الإلكتروني : numanhasan٢٠٠٠@gmail.com

[1] " البيان القرآني : مفهومه وأسلوبه لـ عودة خليل أبو عودة ، ص ٥٠ " .

التعريف بـ "علم البيان" بمعناه الخاص :

قال الشيخ البدوي في كتابه [1] : " علم البيان هو علم يُعرف به إيراد المعنى الواحد بتراكيب مختلفة ، في وضوح الدلالة على المعنى المراد بأن تكون دلالة بعضها أجلى من بعض " .

ذكر الدكتور مصطفى الجويني – رحمه الله – بعض الموضوعات لعلم البيان – كما ذكر لعلم المعاني – التي تكلّم عنها الزمخشري في تفسيره دليلاً على نظم القرآن وبياناً على أسرار الجمال القرآنية ؛ سألخّص هذه المواضيع فيما يأتي :

المجاز :

قول الله تعالى : (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) [البقرة : ١٦] .

قال الزمخشري – رحمه الله – : " فإن قلت : كيف أسند الخسران إلى التجارة ، وهو لأصحابها ؟ قلت : هو من الإسناد المجازي ، وهو أن يسند الفعل إلى شيئ يتلبس بالذي هو في الحقيقة له ، كما تلبست التجارة بالمشترين . فإن قلت : هل يصح : ربح عبدك وخسرت جاريتك ، على الإسناد المجازي ؟ قلت : نعم إذا دلت الحال . وكذلك الشرط في صحة : رأيت أسداً ، وأنت تريد المقدام إن لم تقم حال دالة لم يصح . فإن قلت : هب أنّ شراء الضلالة بالهدى وقع مجازاً في معنى الاستبدال ، فما معنى ذكر الربح والتجارة ؟ كأن ثمّ مبايعة على الحقيقة . قلت : هذا من الصنعة البديعة التي تبلغ بالمجاز الذروة العليا ، وهو أن تساق كلمة مساق المجاز ، ثم تقفى بأشكال لها وأخوات ، إذا تلاحقن لم تر كلاماً أحسن منه ديباجة وأكثر ماءً ورونقاً ، وهو المجاز المرشح . وذلك نحو قول العرب في البليد : كأن أذنى قلبه خطلا ، وإن جعلوه كالحمار ، ثم رشحوا ذلك روماً لتحقيق البلادة ، فادعوا لقلبه أذنين ، وادعوا لهما الخطل ، ليمثلوا البلادة تمثيلاً يلحقها ببلادة الحمار مشاهدة معاينة " [2] .

الكناية والتعريض :

قول الله تعالى : (وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ

---

[1] " معجم البلاغة العربية " .

[2] تفسير الزمخشري (١/ ٧٠) .

أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ) [البقرة : ٢٣٥] .

قال الزمخشري رحمه الله مفرقاً بين الكناية والتعريض : " فإن قلت : أي فرق بين الكناية والتعريض ؟ قلت : الكناية أن تذكر الشيئ بغير لفظه الموضوع له ، كقولك : طويل النجاد والحمائل لطول القامة وكثير الرماد للمضياف . والتعريض أن تذكر شيئاً تدل به على شيئ لم تذكره ، كما يقول المحتاج للمحتاج إليه : جئتك لأسلم عليك ، ولأنظر إلى وجهك الكريم " [1] .

قول الله تعالى : (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ) [البقرة : ٢٨] .

قال الزمخشري رحمه الله معرضاً فلسفياً لأسلوب الكناية في الآية : " فما تقول في " كيف " حيث كان إنكاراً للحال التي يقع عليها كفرهم ؟ قلت : حال الشيئ تابعة لذاته ، فإذا امتنع ثبوت الذات تبعه امتناع ثبوت الحال فكان إنكار حال الكفر لأنها تبيع ذات الكفر ورديفها إنكاراً لذات الكفر ، وثباتها على طريق الكناية ، وذلك أقوى لإنكار الكفر وأبلغ . وتحريره : أنه إذا أنكر أن يكون لكفرهم حال يوجد عليها . وقد علم أنّ كل موجود لا ينفك عن حالٍ وصفة عند وجوده . ومحال أن يوجد بغير صفة من الصفات كان إنكاراً لوجوده على الطريق البرهاني " [2] .

قول الله تعالى : (وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ْ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ْ . . .) [ص : ٢١ – ٢٣] .

قال الزمخشري رحمه الله مبيّناً لأسلوب التعريض في الآي : " فإن قلت : لم جاءت على طريقة التمثيل والتعريض دون التصريح ؟ قلت : لكونها أبلغ في التوبيخ ، من قبل أن التأمل إذا أدّاه إلى الشعور بالمعرض به ، كان أوقع في نفسه ، أشد تمكناً من قلبه ، وأعظم أثراً فيه ، وأجلب لاحتشامه وحيائه ، وأدعى إلى التنبه على الخطأ فيه من أن يبادره به صريحاً ، مع مراعاة حسن الأدب بترك المجاهرة " [3] .

---

[1] المرجع السابق (١/٢٨٢) .

[2] المرجع السابق (١/١٢١) .

[3] المرجع السابق (٤/٨١) .

التمثيل والتخييل :

قول الله تعالى : (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا) [الأعراف : ١٧٢] .

قال الزمخشري رحمه الله : " وقوله (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ قَالُوا : بَلَى شَهِدْنا) من باب التمثيل والتخييل "١" ! ومعنى ذلك أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته ، وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم ، وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى ، فكأنه أشهدهم على أنفسهم وقررهم وقال لهم : ألست بربكم ؟ وكأنهم قالوا : بلى أنت ربنا ، شهدنا على أنفسنا وأقررنا بوحدانيتك . وباب التمثيل واسع في كلام الله تعالى ورسوله عليه السلام ، وفي كلام العرب . ونظيره قوله تعالى : (إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) ،(فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً . . .) . . " [١] .

التعبيرات النفسية :

قوله تعالى : (وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) [الأنعام : ١١٤] .

قال الزمخشري رحمه الله : " قوله (فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) من باب التهييج والإلهاب ، كقوله تعالى : وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أو فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ في أنّ أهل الكتاب يعلمون أنه منزل بالحق ، ولا يريبك جحود أكثرهم وكفرهم به " [٢] .

قوله تعالى : (وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) [النور : ٢] .

قال الزمخشري رحمه الله : " وقوله (إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) من باب التهييج وإلهاب الغضب لله ولدينه " [٣] .

البيان القرآني وأسلوب الشعر :

قول الله تعالى : (وَقَالُوا رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَكُبَراءَنا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا) [الأحزاب : ٦٧] .

---

[١] المرجع السابق (١٧٦/٢) .
[٢] المرجع السابق (٦٠/٢) .
[٣] المرجع السابق (٢٠٩/٣) .

يقول الزمخشري رحمه الله مبيّناً البيان القرآني على أسلوب الشعر في الفاصلة : " يقال : ضلّ السبيل وأضله إياه ، وزيادة الألف لإطلاق الصوت : جعلت فواصل الآي كقوافي الشعر ، وفائدتها الوقف والدلالة على أن الكلام قد انقطع ، وأن ما بعده مستأنف " [1] .

هذه بعض النماذج الذي ذكرها الزمخشري في هذا العلم ؛ وهذا لا يعني أنه لم يذكر ولم يهتمّ المواضيع غيرها في هذا العلم .

(ب) موقفه بعلم البديع القرآني :

التعريف بـ " علم البديع " :

عرّف الخطيب القزويني محمد بن عبد الرحمن علم البديع في كتابه " التلخيص " بأنه : " علم يُعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة " .

ويعرفه ابن خلدون بأنه : " هو النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنميق : إما بسجع يفصله ، أو تجنيس يشابه بين ألفاظه ، أو ترصيع يقطع أوزانه ، أو تورية عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى منه ، لاشتراك اللفظ بينهما ، أو طباق بالتقابل بين الأضداد وأمثال ذلك " .

ذكر الدكتور مصطفى الجويني بعض الموضوعات لعلم البديع – كما ذكر لعلم المعاني والبيان – التي تكلّم عنها الزمخشري في تفسيره دليلاً على نظم القرآن وبياناً على أسرار الجمال القرآنية ؛ سألخّص هذه المواضيع بقدر الاستطاعة – بتوفيق الله – فيما يأتي :

الجناس :

قوله تعالى : (فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ) [النمل : ٢٢] .

قَالَ الزمخشري رحمه الله : " وقوله (سَبَإٍ بِنَبَإٍ) من جنس الكلام الذي سماه المحدّثون البديع ، وهو من محاسن الكلام الذي يتعلق "٣" باللفظ، بشرط أن يجيئ مطبوعاً . أو يصنعه عالم بجوهر الكلام يحفظ معه صحة المعنى وسداده ، ولقد جاء هاهنا زائداً على الصحة فحسن وبدع لفظاً ومعنىً . ألا ترى أنه لو وضع مكان بنبأ بخبر ، لكان المعنى صحيحاً ،

[1] المرجع السابق (٥٦٢/٣) .

وهو كما جاء أصح ، لما في النبأ ، من الزيادة التي يطابقها وصف الحال "[1]

المشاكلة :

قوله تعالى : (صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عابِدُونَ) [البقرة : ١٣٨] .

قال الزمخشري رحمه الله : " والمعنى : تطهير اللَّه ، لأن الإيمان يطهر النفوس . والأصل فيه أن النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه المعمودية ، ويقولون : هو تطهير لهم ، وإذا فعل الواحد منهم بولده ذلك قال : الآن صار نصرانياً حقاً ، فأمر المسلمون بأن يقولوا لهم : قولوا آمنا باللَّه ، وصبغنا اللَّه بالإيمان صبغةً لا مثل صبغتنا ، وطهرنا به تطهيراً لا مثل تطهيرنا . أو يقول المسلمون . صبغنا اللَّه بالإيمان صبغته ولم نصبغ صبغتكم . وإنما جيئ بلفظ الصبغة على طريقة المشاكلة ، كما تقول لمن يغرس الأشجار : اغرس كما يغرس فلان ، تريد رجلاً يصطنع الكرم "[2] .

أسلوب اللف والطباق :

قوله تعالى : (وَمِنْ آياتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيات لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) [الروم : ٢٣] .

قال الزمخشري رحمه الله : " هذا من باب اللفّ وترتيبه : ومن آياته منامكم وابتغاؤكم من فضله بالليل والنهار ، إلا أنه فصل بين القرينين الأوّلين بالقرينين الآخرين . لأنهما زمانان . والزمان والواقع فيه كشيئ واحد ، مع إعانة اللفّ على الاتحاد "[3] .

قوله تعالى : (مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ) [هود : ٢٤] .

قال الزمخشري رحمه الله : " شبه فريق الكافرين بالأعمى والأصم ، وفريق المؤمنين بالبصير والسميع وهو من اللف والطباق "[4] .

بلاغة القرآن :

يرى الزمخشري أن في القرآن بليغاً وأبلغ . ونرى تطبيقه العملي

---

[1] المرجع السابق (٣/٣٦٠) .
[2] المرجع السابق (١/١٩٦) .
[3] المرجع السابق (٣/٤٧٣) .
[4] المرجع السابق (٢/٣٨٧) .

لرأيه هذا فيما يأتي :

قوله تعالى : (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِه يُصِيبُ به مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِه) [يونس : ١٠٧] .

قَالَ الزمخشَري رحمه اللّه : " وهو أبلغ من قوله : (إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ، أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِه) "[١] .

قوله تعالى : (مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ) [غافر : ٣١] .

قَالَ الزمخشري رحمه الله : " وهو أبلغ من قوله تعالى : (وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) حيث جعل المنفي إرادة الظلم ، لأنّ من كان عن إرادة الظلم بعيداً ، كان عن الظلم أبعد "[٢] .

هذه بعض النماذج الذي ذكرها الزمخشري في هذا العلم ؛ وهذا لا يعني أنه لم يذكر ، ولم يهتمّ المواضيع غيرها في هذا العلم .

التنبيه : هذه المواضيع في علم النظم التي ذكرها الزمخشري ليست مقتصرةً ومحدّدةً على هذه فقط ؛ بل من باب الاختصار ومن باب ذكر بعض النماذج في هذا العلم ، وكذلك من باب بيان اهتمام الزمخشري في هذا العلم .

الدكتور محمد حسنين أبو موسى – حفظه الله – ذكر في كتابه غير هذه المواضيع في هذا العلم ، واستطرد الكلام في ذلك ؛ لكن لم أذكر هذه المواضيع كلها من باب الاختصار ومن باب خشية طول البحث الذي هو غير مطلوب .

انبهار الزمخشري بالإعجاز :

قول الله تعالى : (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) [النمل : ٨٨ – ٩٠] .

قال الزمخشري رحمه الله : " فانظر إلى بلاغة هذا الكلام ، وحسن نظمه وترتيبه ، ومكانة إضماده ، ورصانة تفسيره ، وأخذ بعضه

---

[١] المرجع السابق (٢/٣٧٥) .

[٢] المرجع السابق (٤/١٦٥) .

بحجزة بعض ، كأنما أفرغ إفراغاً واحداً ، ولأمر مّا أعجز القوى وأخرس الشقاشق "[1] .

الرد على القول بالصرفة :

الإمام الزمخشري رحمه الله ردّ على القول بالصرفة على الرغم من أنه معتزليّ المعتقد ؛ لأنّ بعض الأئمة المعتزلية لم يوافقوا في هذه المسألة ، بل ذهبوا إلى القول بالصرفة . فردّ الزمخشري على هذا . والدليل على ذلك كما يأتي :

قول الله تعالى : (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِه وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً) [الإسراء : ٨٨] .

قال الزمخشري رحمه الله في تفسير هذه الآية : " (لا يَأْتُونَ) جواب قسم محذوف ، ولولا اللام الموطئة ، لجاز أن يكون جواباً للشرط ، كقوله : يقول لا غائب مالي ولا حرم ؛ لأن الشرط وقع ماضياً ، أى : لو تظاهروا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن في بلاغته وحسن نظمه وتأليفه ، وفيهم العرب العاربة أرباب البيان لعجزوا عن الإتيان بمثله ، والعجب من النوابت ، ومن زعمهم أن القرآن قديم مع اعترافهم بأنه معجز ، وإنما يكون العجز حيث تكون القدرة ، فيقال : الله قادر على خلق الأجسام ، والعباد عاجزون عنه . وأما المحال الذي لا مجال فيه للقدرة ولا مدخل لها فيه كثاني القديم ، فلا يقال للفاعل : قد عجز عنه ، ولا هو معجز . ولو قيل ذلك لجاز وصف الله بالعجز ، لأنه لا يوصف بالقدرة على المحال ، إلا أن يكابروا فيقولوا هو قادر على المحال ، فإن رأس ما لهم المكابرة وقلب الحقائق "[2] .

من مهمات الإعجاز" التحدي " :

يرى الزمخشري رحمه الله أن التحدي هو شرط أساس للإعجاز القرآني .

قول الله تعالى : (وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً وَأَحْسَنُ نَدِيًّا) [مريم : ٧٣] .

قال الزمخشري رحمه الله في تفسير كلمة " بينات " : " بَيِّناتٍ

---

[1] المرجع السابق (٣/٣٨٧) .

[2] المرجع السابق (٢/٦٩١) .

مرتلات الألفاظ ، ملخصات المعاني ، مبينات المقاصد : إما محكمات أو متشابهات ، قد تبعها البيان بالمحكمات . أو بتبيين الرسول قولاً أو فعلاً . أو ظاهرات الإعجاز تحدّى بها فلم يقدر على معارضتها . أو حججاً وبراهين "[1] .

الخاتمة :

أبرز نتائج هذه المقالة كما يأتي :

إنّ تفسير الكشاف للزمخشري هو أول تفسير – كما رأينا ذلك في هذا البحث – يكشف عن سر بلاغة القرآن ووجوه إعجازه ودقة معانيه في ألفاظه مما كان له الأثر الكبير في عجز العرب عن معارضته والإتيان بمثله .

إن الكشاف للزمخشري – في الحقيقة – تفسير جليل رائد ، وهو الممثل الرسمي الواضح لتفاسير فرقة المعتزلة ، والذي نصر فيه المؤلف مذهبَ الاعتزال وخالف فيه مذهب أهل السنة والجماعة في مسائل الاعتقاد التي وقع الخلاف فيها . ولذلك فإننا نرى كثيراً يمدحون هذا الكتاب وأيضاً مثلهم يقدحون ويغضون ويعترضون على هذا الكتاب .

إن التنوع في القراءات القرآنية وتعددها لم يكن لمجرد تيسير وتسهيل النطق بها ، وإنما للبلاغة نصيبها من ذلك التعدد ، وهذا من أبواب الإعجاز .

أعمل العلامة الزمخشري في تفسيره جانب البلاغة في التفسير ، مما أدى إلى إثراء المعنى وتوسيعه ، وأعطى قوة في فهم القرآن .

ذكر الإمام الزمخشري أغلب جوانب البلاغة في توجيه القراءات في تفسيره " الكشاف " .

أبرز الإمام الزمخشري جوانب البلاغة في القراءات بنوعيتها المتواترة ، والشاذة ، وشكلت القراءات الشاذة الجزء الأكبر من حجم القراءات في تفسيره ، لأنها أكثر ما أعمل فيه النحاة أقلامهم .

كما أكد لنا الزمخشري في توجيه معنى الآيات صحة الافتراض أن كل قراءة بمثابة آية برأسها ، ولو جعلت كل قراءة آية على حدة لأفضى إلى التطويل ، فدل ذلك أن تنوع القراءات ضرب من ضروب البلاغة يجمع بين جمال الإيجاز وكمال الإعجاز .

---

[1] المرجع السابق (٣٦/٣) .

أثر القرآن الكريم في تطوير النقد العربي القديم

الدكتور بلال أحمد شاه *

النقد في اللغة :

يقول ابن فارس في تعريفه للنقد : النون والقاف والدال أصل صحيح ، يدل على إبراز الشيئ وبروزه [1] ، وجاء في لسان العرب : هو نقد الدراهم ، وذلك أن يكشف عن حاله في جودته أو غير ذلك ، ونقد الدراهم : أي إخراج المزيف منها [2] .

جاء في المعاجم العربية أن لفظة " نقد " تعني تمييز الدراهم والدنانير وإخراج الزائف منها . وقد استعمل هذا اللفظ قديماً ليدل على هذا المعنى .

فنقدت الدراهم والدنانير وانتقدتها إذا أخرجت الزائف منها ، والنقد والتنقاد بنفس المعنى ، وقد ورد في المعاجم أيضاً نقد الشعر والكلام أي نظر فيه وميّز الجيد من الرديئ ، فهو ناقد وجمعه نقاد ونقدة ، ونقد الكلام أبان ما فيه من عيب أو زيف ، ولذلك شبه العرب الناقد بالصيرفي ، فكما يستطيع الصيرفي أن يميز الدراهم والدنانير ، والصحيح من الزائف كذلك يستطيع الناقد أن يميز الشعر الجيد من الرديء .

النقد في الاصطلاح :

أما في التعريف الاصطلاحي : عرّف النقد في الاصطلاح تعريفات متعددة منها : أن النقد تفسير للنص الأدبي ومساعدة القارئ على فهمه وتذوقه ، وذلك عن طريق فحصه وعرض ما فيه من قيم فنية وجمالية .

---

* الأستاذ المساعد ، قسم اللغة العربية وآدابها ، جامعة كشمير ، سرينغر .

[1] ابن فارس ، (أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي) معجم مقاييس اللغة ، المحقق : عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر بيروت ، ١٩٧٩م ، (كتاب النون – باب النون وما بعدها) .

[2] ابن منظور الأنصاري ، (محمد بن مكرم) ، لسان العرب ، مادة (ن ق د) ، الحواشي، اليازجي وجماعة من اللغويين ، دار صادر بيروت ، الطبعة الثالثة – ١٤١٤هـ .

وكذلك هو فن دراسة النص الأدبي وإظهار قيمته . وهو فلسفة الأدب لأنه يجلو جوهره ويفسر حقائقه التي ينطوي عليها . والنقد هو دراسة الأساليب وتمييزها ، أي معرفة منحى الأديب وطريقته في التأليف والتعبير والتفكير والإحساس ، فضلاً عن طرق الأداء اللغوية .

فالنقد في حقيقته تعبير عن موقف كلي متكامل في النظرة إلى الفن عامة ، يبدأ بالتذوق ، أي القدرة على التمييز ، ويعبر منها إلى التفسير والتحليل والتقييم ، كما أنه يعتبر تمحيصاً للعمل الأدبي بشكل متكامل ، حال الانتهاء من القيام به ، أما النقد الأدبي ، فهو تفحص الأعمال الأدبية ، والكشف عن مواطن الجودة والرداءة فيها ، والناقد هو الذي يبحث عن مكامن القوة والضعف في كل عمل أدبي .

ولقد أحدث القرآن الكريم أثراً كبيراً في النقد حيث كان العرب في الجاهلية أشد الناس فصاحةً ، وأكثرهم نظماً للشعر الجيد والموزون والمنظوم ، بشكل رائع ، حيث كان الشاعر يفضل على الخطيب ، ويعتبر لسان قومه ، إذا مدح جماعةً رفعهم ، وإذا هجاهم جعلهم أذل الناس ، فكان الشعر من بين المواضيع الهامة التي يتداولها الناس آنذاك ، وكان النقد انطباعياً بسيطاً ، ساهم في ظهوره اللقاءات الشعرية التي كانت تعقد بالأسواق الأدبية ، كعكاظ ، وذي المجاز ، حيث يجتمع الشعراء ويتنافسون ويعرضون أجود أشعارهم ، وكان الشاعر النابغة الذبياني حكماً عليهم آنذاك . لكن مع مجيئ الإسلام ، أخذ النقد طريقاً آخر غير الذي كان يسلكه في الجاهلية ، فقد تميزت هذه المرحلة بنزول القرآن الكريم ، الذي أخذ مكان الصدارة ، لكونه النص الأدبي الأول لهذه الأمة ، والكتاب المبين المعجز ، بالإضافة إلى أنه وحي السماء ، فقد أثار منذ اللحظة الأولى لنزوله حركة فكرية جديدة عند العرب .

ودعاهم إلى الالتفات لما جاء به من جديد في أساليب التعبير والبيان ، وعلقت أفئدتهم وأسماعهم بما تضمنه من كلام رائع ، فلم يسعهم إزاءه إلا التسليم بروعة أثره في النفوس وفي العقول ، فمن قائل أنه سحر ، ومن قائل أنه شعر ، ومن قائل أنه أساطير الأولين ، هذا لأنه أضحى في الرتبة

الأولى ، وصار الشعر بعده ، ذلك لأن الشعراء انبهروا بروعة بيانه ، فمنهم من تفرغ لخدمته ، ومنهم من صار توجهه الدفاع عن الدعوة الإسلامية ، ومن بين أمثلة الإعجاب ، نجد قول عتبة بن ربيعة ، حين سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم الأجزاء الأولى من سورة فصلت ، ثم عاد إلى قومه فسألوه : " ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورائي أني سمعت قولاً ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة ، يا معشر قريش ! أطيعوني وخلوا بين الرجل وبين ما هو فيه ، وقول الوليد ابن المغيرة : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذق ، وإن فرعه جناة " [1] .

ومنذ بدء الدعوة الإسلامية برزت ظاهرتان متصلتان بالحياة الأدبية ، أولهما : نزول القرآن الكريم وتصدره على كل ما أنتج العرب من أدب وبيان ، ثانيهما : ظاهرة الإعجاز البلاغي وقيام الرسالة السماوية عليه ، لذلك ركزوا على دراسته دراسة نقدية تعتمد على البحث في الأساليب ، والتعمق في أسرار البلاغة ، والموازنة بين ألوان الكلام الرفيع .

وبدأت مدرسة الرسول صلى الله عليه وسلم تترسم خطاه في التفسير ، وتحفظ ما نقل عنه وترويه ، وقد تتزيد فيه بحذر ، في شرح لفظ الغريب ، أو بيان حكمة أو موعظة ، وقد نشأت طبقة القراء في صدر الإسلام ، تحفظ القرآن الكريم وتلم ببعض التفسير على النحو السابق ، ثم يبعث بها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى القبائل يعلمونهم القرآن ويفقهونهم في معانيه .

وقد انقسم الصحابة رضي الله عنهم إلى قسمين : متحرج من القول في القرآن الكريم ، كأبي بكر وعمر وغيرهم . . . . والقسم الثاني الذين لم يتحرجوا ، وفسروا القرآن حسب فهمهم من الرسول صلى الله عليه وسلم ، بالاستعانة بالشعر العربي ، وكلام العرب ، ومنهم علي ابن أبي طالب ، وعبد الله بن عباس .

وتتجلى أسباب تأثر النقد بالقرآن في تجاوز لمستوى العرب في

[1] القرآن الكريم ، تفسير ابن كثير ، تفسير سورة فصلت – الآية ٥ ، ابن كثير البداية والنهاية ، الجزء الثالث ، باب مجادلة النبي صلى الله عليه وسلم الكفار وإقامة الحجة الدامغة عليهم ، ج ٣ ، ص ٨٢ ، دار الفكر بيروت .

الفصاحة والبيان ، مما جعلهم يبحثون عن مكامن الجمال فيه ودراستها ، مما دعا إلى البحث عن أدوات النقد لاكتشاف أسرار الجمال في هذا الكتاب المعجز ، لذلك نشأت مجموعة من العلوم من بينها النحو ، الذي يختص بضبط قراءة القرآن الكريم وكذلك البلاغة ، ولا يتوقف عند هذا الحد فقط ، بل ما زال يمد الباحثين بالعديد من العلوم المتجددة ، فهو بحر لا ينفد ، أو كما قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تفنى عجائبه ولا يبلى على كثرة الخلق " .

ومن مظاهر تأثر النقد بكتاب الله عز وجل ، تخصيص مجموعة من النقاد حيزاً كبيراً لدراستهم للقرآن ، ومن بينهم ابن قتيبة الذي قال في كتابه تأويل مشكل القرآن " وإنما يعرف فضل القرآن من كثر نظره واتسع علمه وفهم مذاهب العرب واقتنانها في الأساليب " [1] . وهذا دليل واضح على المكانة التي حظي بها القرآن الكريم ، كما أن ابن قتيبة قد اشتغل في النقد بتوضيح ما استعصى فهمه ، والدفاع عن القرآن في قضايا التشابه والاختلاف والمجاز ، بالإضافة إلى العديد من النقاد كابن سنان الخفاجي ، وعبد القاهر الجرجاني ، اللذين جعلا مادة دراستهما هي القرآن الكريم في كتابيهما دلائل الإعجاز ، وسر الفصاحة ، بالإضافة إلى البيان والتبيين للجاحظ ، والصناعتين لأبي هلال العسكري .

لقد أدى هذا الاهتمام الكبير بالقرآن الكريم إلى الإقبال على دراسته بجانب اللغة والشعر ، بهدف التفسير من جهة ، ثم التنقية اللغوية من جهة أخرى ، فبدأت حركة التأليف ، واحتدمت المعارك بين الشعراء واللغويين أنفسهم ، وذلك يتضح من خلال جانبين :

يتمثل الأول في الدراسات اللغوية حيث أصبح القرآن الكريم بفضل تطورها محط اهتمام العرب ، إذ حرصوا على الحفاظ على اللغة العربية رغبة في حفظ لغة القرآن الكريم ، كي يظل مفهوماً ومقروءاً ومتدارساً ، ومع مطلع القرن الثاني الهجري ، انتشرت اللغة العربية واتسعت رقعتها ، وزاد الإقبال على دراسة القرآن واللغة والشعر ، فكان

[1] ابن قتيبة الدينوري ، تأويل مشكل القرآن ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ص ١٧ .

لهذا التطور تأثير كبير على الدراسات اللغوية والنقدية .

ويعتبر هذا الكتاب المعجز ، من الدوافع الغير المباشرة في اهتمام الوافدين الجدد باللغة العربية ، فالقرآن هو كتاب العربية الأول ، ودستور الإسلام الجديد ، والعربية لغة المسلمين الفاتحين ، ولغة الأدب والكتابة والسياسة والحكم ، وللقرآن ما يعين على فهمه : كالتفسير ومعرفة الغريب والإلمام بالنحو والشعر وغيرها .

ومع اتساع الحركة الفكرية والتداخل بين الثقافات ، أقبل الفرس على تعلم القرآن وعلوم العربية ، وبدأ العرب يتطلعون إلى ثقافة الفرس ، فنتج عن هذا التداخل أن شابت اللسان العربي بعض الشوائب الغريبة : كالتحريف ، والتداخل في بعض الألفاظ الأعجمية ، وكنتيجة لهذا الاختلاط ، احتدمت المعارك اللغوية بين الشعراء واللغويين ، وبرزت كذلك حركة التنقية اللغوية ، إلى جانب قيام مجموعة من العلماء بوضع القواعد والأصول ، لضبط اللغة وقياسها ، وفهم ما جاء منها عن طريق الشرح ، ووضع المعاجم التي ظهر منها في هذا العصر كتاب العين ، للخليل بن أحمد الفراهيدي .

وكان للقرآن الكريم الأثر الكبير في العديد من الكتب ، من بينهما تفسير غريب القرآن وإعراب القرآن ، وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة .

ويتمثل الثاني في الدراسات الشعرية حيث كان الشعر في العصر الجاهلي يحتل المرتبة الأولى ، ويحظى باهتمام الناس آنذاك ، حيث بلغت مرتبة الشاعر مراتب الزعماء والرؤساء ، إذ كانت تبشر بمولده القبائل ، وتستند إليه في الدفاع عن نفسها ، فهو لسانها الناطق باسمها ، يرفع من شأن من مدحه ، ويذل من هجاه ، يثير الحماس في النفوس فتندفع للقتال أو تقبل على الخير ، لكن مع نزول القرآن الكريم تغيرت الموازين ، ونزل الشعر عن مرتبته ، لأن بيان القرآن كان معجزاً ، وصار بعد ذلك الشعر عوناً للناس على فهم القرآن ، فقد قال ابن العباس " إذا صعب عليكم شيئ من معاني القرآن فالتمسوه في الشعر ، فالشعر ديوان العرب " [1] .

[1] جلال الدين السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن ، الهيئة المصرية العامة للكتب ، ١٩٧٤م ، ج ١ ، ص ٣٤٧ .

وانطلقت بذلك حركة التفسير مستعينة بالشعر ، وتقدم الزمن ، وخرج الشعر والقرآن كلاهما من بيئتهما وسط الجزيرة إلى أوطان غريبة ، لم يفهم أهلها القرآن ولا الشعر ، فظهرت مجموعة من المفسرين والرواة يفسرون القرآن ويجمعون الشعر ويشرحونه للناس ، ومن بينهم : حماد الراوية ، وخلف الأحمر ، وأبو عمر بن العلاء . وكانت هناك حلقات النقد في قصور الخلفاء ، يتعرض فيها الشعراء ممن حضر المجلس ، أو الخلفاء أنفسهم ، وعرفوا بالبراعة في نقد الشعر ، وكان الناس يهتمون به في صدر الإسلام والعصر الأموي ليستشهدوا به على القرآن الكريم .

أما في العصر العباسي ، فقد امتزج اللسان العربي بغيره ، وظهرت بعض اللهجات العامية التي أخذ أسلوب القرآن يبتعد عنها ، وكان الاستشهاد على غريب الشعر يدعم بالآيات القرآنية بالموازاة مع تأثر حركة النقد بالدراسات القرآنية ، برزت حركة إنشائية في صناعة الشعر ، ذلك أن الشعراء المحدثين والكتاب بدأوا يجددون في الشعر والكتابة ، لكن باللجوء إلى الصنعة والتنميق ، والاستعانة بالبديع وضروب الصناعة اللفظية والبيانية .

هكذا كان للقرآن الكريم دور في تغيير مسار النقد ، كما غير أسلوب الحياة ، وحظيت اللغة العربية بمكانة عالية بفضله ، فقد تكرر ذكرها في العديد من الآيات في القرآن الكريم ومنها قوله تعالى : (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرآناً عَرَبِياً لَعَلّكُم تَعقِلُون) [1] ، وهذا ما جعلها أفضل اللغات إلى يومنا هذا ، وبرزت مجموعة من العلوم التي أصبحت في خدمتها ، من نحو وبلاغة ، إلى جانب ظهور العديد من النقاد ، وتأليف كتب نقدية تدرس القرآن وتهتم به من مختلف المناحي ، وصار الشعر في خدمة الدعوة الإسلامية وتفسير القرآن ومدح النبي صلى الله عليه وسلم ، كما استمر ذلك في العصر الأموي مع الخلفاء والولاة والحكام ، وظل القرآن الكريم في مختلف العصور المزود الرئيسي بشتى العلوم ، واحتل الرتبة الأولى في الدراسات النقدية .

[1] سورة يوسف ، الآية – ٢ .

رحلة إلى الأردن بين المقدسات والمعالم

(الحلقة الثالثة)

الأخ السيد عبد العلي الحسني الندوي *

ولم يوقظنا صباح يوم الأحد إلا نغمة أذان الفجر الرقيقة الرنينة المفعمة بالنشاط والحيوية ، وقد أزالت عنا زمزمةُ تكبيرات التوحيد المدوية المطهرة للعالم من أدران الشرك وأوساخ البدع والمعاصي ضغوطاتِ السفر الطويل ومتاعبَ التجوال المتواصل بدون توافر قسط من الاستراحة وفرصة لاسترخاء المفاصل ، وكنا مشمِّرين عن سواعدنا للتأهب لليومِ الحافل في طياته زيارات جديدة ولقاءات مفاجئة ، فهجرنا الفراشِ تواً وقصدنا إلى مسجد قريب ، وصلينا الفجر وانصرفنا منه مباشرة إلى محطة سيارات الأجرة ، وبينما كنا نبحث السيارات بأسعار مقبولة إذ اتصل بنا السائق الذي أنزلنا في فندق أمس ، وكان رجلاً متديناً متصلباً فيما يراه من الأحكام الدينية ، يعتبر زيارة الآثار والمعالم مما تشوبه المظنة وتعارض شرعه ومنهاجه لقصد الناس إليها للتفكه والتلذذ دون اكتساب العبر من أحوال السابقين ، وكان يتطلع أن نتفاوض مع أخيه لعقد صفقة بشأن رحلة اليوم ، فتحدثنا معه وتم الاتفاق دون تأجيل بأسعار ميسورة ، فجاء السائق في بضع دقائق وركبنا في سيارته على اسم الله وذكره ، وقرأنا أدعية السفر وجعلنا لنا ربنا جل وعلا في العياذ والجوار من كل سوء ومكروه .

محافظة مأدبا :

نحن الآن في طريقنا إلى منطقة " مأدبا " العريقة ، هذه المدينة تاريخية قديمة تقع في الجنوب الغربي من عاصمة المملكة على مسافة ٣٣ كلومترا ، وكان في قديم الزمان تسمى " مدينة فسيفساء " وذاع صيتها آنذاك بهذا الاسم النادر الطريف لخريطة مشتهرة تكونت من مليوني قطعة فسيفساء – وهو فن وحرفة صناعة اللوحات التصويرية باستخدام القطع الصغيرة من المواد الصلبة المتنوعة مثل الحجارة والزجاج والأصداف وغيرها على الفراغات الأرضية والجدارية تارة لمجرد التزيين والزخرفة

* نجل الشيخ السيد بلال عبد الحي الحسني الندوي .

وتارة لعرض الحضارة والمدنية في شكل فني مبدع – تشتمل عليها " أراضي فلسطين " المحتلة والأردن وأرض " شبه جزيرة سيناء " في الشمال الشرقي من جمهورية مصر العربية التي يحدها البحر الأبيض المتوسط شمالاً وخليج السويس – التي كانت تسمى قديماً " بحر القلزم " – غرباً والبحر الأحمر جنوباً وخليج العقبة شرقاً إلى حدود الأردن وفلسطين المحتلة ، وتصممت مدينة القدس في وسط الخريطة التي تنصب في كنيسة رومانية أرذوكسية (Roman Orthodox Church) ، وكانت الكنائس الأثرية والأديرة المسيحية والكاتدرئيات القديمة بمحافظة " مأدبا " في كثرة هائلة وتضاعف متزايد بالنسبة لمناطق المملكة الأخرى ، وربما يوجد عدد كبير من المسيحيين المواطنين في هذه المنطقة لهذا السبب بالرغم من عدم ترشح المقاعد المطروحة لهم في انتخابات البلديات وفق ما يتوخون مع أنه لم ينجح مسيحي في الدورة الانتخابية الأخيرة رغم تخصيص مقعد متنافس للمسيحيين ، علاوة على ذلك ، تعد محافظة " مأدبا " رمزاً للتسامح بين المسلمين والمسيحيين منذ قرون طويلة ، حيث تمكن المسلمون من فتحها عام ٦٣٧ من الميلاد في زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ولم يكرهوا أحداً على تغيير دينه حيث استمر الكثير من سكان المدينة باعتناق المسيحية ، ومازالت مواقعهم الدينية ومعالمهم المقدسة من الكنائس والمعابد تشهد تعامل المسلمين معهم تعامل الأمن والأمان والحفظ والسلام عبر العصور المختلفة حتى طارت سمعة المنطقة في التعايش السلمي بين الأديان من أقصى العالم إلى أقصاه ، ومن ثم سميت المدينة " مدينة الوئام بين الأديان " .

صياغة مقام موسى كليم الله :

كنا نمر بسهول الخضراوات والفواكه والبساتين المثمرة للصنوبر والزيتون ، وبعد قليل أخذت السيارة تروح بنا على جدد الجبال الملتوية وانتهينا إلى وُجهتنا ، وهي قمة " جبل نيبو " مقام موسى عليه الصلاة والسلام في رمشة عين .

يقع " جبل نيبو " صياغة مقام موسى عليه الصلاة والسلام على مسافه أقل من ٢٠ ميلاً من مدينة القدس المحتلة ، وكان النبي موسى عليه الصلاه والسلام حسب الروايات الإسرائيلية قضى آخر أيام حياته في هذا المكان المرموق المشهود له في التاريخ ، وتوفي ودفن فيه ، وجاء في التصريحات الإسرائيلية الأخرى أن موسى عليه الصلاة والسلام خاطب تجمُّع قومه على هذه القمة من جبل نيبو مطلاً على الأرض المقدسة

المباركة حولها قائلاً كما جاء في القرآن الكريم : (يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ) ، فما كان جواب قومه إلا أنهم ، (قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ) بل قالوا مردفين بأبخس جرأة ووقاحة (إِنَّا لَنْ نَّدْخُلَهَآ أَبَداً مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ) . ومن الحسرة والأسى والعار علينا وعلى ولاتنا المسلمين عامة وحكام دول الشرق الأوسط بوجه خاص بأنهم يستندون إلى نفس الأعذار الواهية التافهة من تقلص العدة والعتاد لما سرى فيهم الجبن والوهن والعجز والتخاذل عن المقاومة والتصدي والجهاد في سبيل الله للحفاظ على الأرض المقدسة التي بارك الله حولها ويخيبون آمال الملايين من الذين يُضطهدون ويُستبدون على أيدي الصهاينة الغاشمين المحتلين المتوغلين في أرض فلسطين التي مازالت في انتظار أن يبرز على مطلعها صلاح الدين الآخر– لا الأخير – الذي يقشعر لآنات المسلمين وآهات المستضعفين ويهتز بها ضميره ولا يتزعزع في رد كيد الأعداء إلى نحورهم ، مازالت رقعة هذه الأرض المقهورة في انتظار جماعات من آفاق الكون يعشقون المسجد الأقصى والمشروع الفلسطيني الخالص ، ولا يتقهقرون عن تقديم تضحيات سامية جبارة في تحرير الأرض المباركة من أيدي الصهاينة الطغاة الغاشمين مثل جماعة مقاومة حماسية باسلة تتصدى على جبهة قطاع غزة العزيزة على قدم وساق ، مازالت الأرض الموعودة المباركة في انتظار أن تزود الحكومات المسلمة بكل ما تمس إليه الحاجة من أسلحة إيمانية ومادية ، وتعود إلى الاعتزاز بالإيمان والثقة بالأنفس وتناصر بعضها بعضاً في تحقيق هذا الهدف النبيل ، إنها مازالت في انتظار أن تهب الرياح الإيمانية القوية التي تقلع الأعداء الألداء من جذورهم ، وأن ينبلج الصبح المشرق والفجر الساطع بعد ظلمات الليل القاتمة المديدة ، فكانت قلوبنا متجشمة ووجوهنا مكفهرة من الفظائع المروعة والأزمات الفتاكة واحدة تلو أخرى ، إذ طلعنا على " جبل نيبو " الذي يعلو عن سطح الأرض بنحو ست مائة وثمانين متراً ، ويستطيع أي شخص عند التسلق إلى قمته الإطلال على وادي الأردن والبحر الميت والأراضي الفلسطينية المحتلة التي تبعد منها حوالي ٢٠ ميلاً ، وربما تلوح من فوقها مدينة القدس المحتلة وقبة الصخرة للمسجد الأقصى أيضاً إذا كان الجو صحواً ، ولكن لم نكد نتمكن من مشاهدتها لجو كثيف ذاك اليوم ، هذا المقام التاريخي هو وقف مسيحي يُعتبر مقدساً عند اليهود والمسيحيين كما ذكرت كلمة " نيبو " في

سفر تثنية الاشتراع في التوراة عند اليهود وفي العهد القديم عند المسيحيين ، ويزعم بعض المؤرخين من المسلمين أنه هو " الكثيب الأحمر " الذي مرَّ به نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه في رحلة الإسراء كما جاء في الحديث : " أتيت على موسى ليلة أُسرِيَ بي عند الكثيب الأحمر ، وهو قائم يصلي في قبره " .

فلهذه المعتقدات والتفاصيل يعد هذا المكان محترماً عند الديانات السماوية كلها ، ولكن تم بناء مجمع من الكنائس حوله لكونه وقفاً مسيحياً ومعبداً كبيراً على مقام موسى المزعوم عليه الصلاة والسلام ونُصب صليبٌ على شفا جرف الجبل كعلامة مسيحية .

ههنا نطل على أرض القدس المباركة المحتلة (أعادها الله للإسلام والمسلمين) ونراها عياناً لأول مرة في حياتنا ، وكنا على بعد أميال ولم يُسمح لنا بالدخول فيها مع أن العواطف المتدفقة تفضينا إليها ركعاً وسجداً ، والخواطر المكلومة تلتهب ولا تلتام إلا بالنزول فيها فاتحين ومنتصرين والأفئدة المترفرفة تطير بنا إليها على أجنحة الجنان والشوق ، فألقينا نظرة عابرة حزينة مؤلمة على ثغور فلسطين وتولينا منها مكتوفي الأيدي ومستضعفين .

جيراش وعجلون :

توجهنا الآن بقلوب مثقلة إلى مدينة جيراش التي تقع في الجزء الشمالي الغربي من العاصمة ، وترتفع من سطح البحر قرابة ٦٠٠ متر ، كانت المدينة بلغت أوج ازدهارها في حقبة الرومان في بداية القرن الثالث الميلادي ، مع أن علماء الأثريات عثروا على أنقاض لمستوطنات قديمة حجرية باقية يعود تاريخها إلى العصر الحجري الحديث بما يدل على الاستيطان البشري في هذا الموقع بقدامة أكثر من ٧٥٠٠ سنة ، وصلنا مباشرة إلى المدينة الرومانية القديمة المحاطة بالأسوار التي تعتبر من أكثر مواقع العمارة الرومانية وأقدمها في العالم ، ومازالت الشوارع الحجرية والحمامات والمسارح والساحات العامة وأقواس المباني الضخمة في حالة استثنائية داخل أسوار المدينة الأثرية فدخلنا فيها وشاهدنا مآثر الحضارة الرومانية القديمة بنظرة سريعة فاحصة ، ولم نتمكن من سياحة المواقع المخصصة لتذاكر باهظة وأسعار غالية ، وتقدمنا إلى سلسلة الجبال المرتفعة وارفة الخضرة المعروفة بجبال " عجلون " .

عجلون :

منطقة " عجلون " تتميز في المملكة بعدد من عوامل الجذب

الرئيسية من محطات جبلية أنيقة وتضاريس ساحرة خلابة وطقس شتوي صبيح ومحمية غابات كثيفة ومواقع أثرية تاريخية من الجوامع والقصور والكنائس والمسارح ، فكنا نمر في سيارتنا بأجمل الطرق المتعرجة وتغشانا الغيوم الملبدة النعيمة ، وتلمسنا همسات النسيم الجوية ونسمات الهواء الباردة التي تهب من خلال غابات كثيفة للزباب والسنديان والصنوبر وبساتين الزيتون وكروم العنب والتين ، وكنا نتجه إلى جبل " عوف " الذي شيدت على قمته قلعة عجلون الأسطورية التي مازالت رمزاً أنيقاً لشوكة الإسلام ومنعتهم في هذه البقعة العريقة الإسلامية من عهد السلطنة الأيوبية ، وهذه القلعة أعجوبة من الأعاجيب لمحل وقوعها وجودة تشييدها وحسن تنسيقها ، وكانت بمنزلة الحصن المنيع لمعسكر صلاح الدين الأيوبي ، قام ببنائها عز الدين أسامة قائد من قادة جيشه ، وكان ابن أخيه سنة ٥٨٠ من الهجرة المصادف ١١٨٤ من الميلاد للإشراف على الأراضي الفلسطينية والحفاظ عليها من توغل الصليبيين المقتحمين وانتهاكاتهم الشِّريرة الدامية وتحمي القلعةُ المعابرَ الرئيسية من أودية كفرنجه وراجب وريان والطرق التجارية وخطوط المواصلات بين الحجاز وبلاد الشام ، فصعدنا إليها ودخلنا فيها من جسر متحرك كان يُرفع في حالات الحرب ويُعاد في السلم على خندق يحيط بالقلعة ويعتبر خط الدفاع الأول وهناك نصبت النوافذ في جميع أطراف أسوار القلعة لإطلاق السهام وإسقاط الزيت الحارق والماء المغلي عند محاولة الاقتحام من قِبل الأعداء ، وكانت عناصر القلعة المعمارية كلها ذات الطابع الإسلامي الأصيل من الأقواس والدهاليز والبوابات التي أضيف عليها الصبغة العسكرية ، ولها أربع طوابق يمكن الإطلال والمراقبة من فوقها على تلال القدس المحتلة والحراسة على ثغور المملكة الأردنية ، وتكثر في داخل القلعة ممرات ضيقة تنتهي في القاعات الفسيحة التي تحفظ فيها الأسلحة الأيوبية والأدوات والأواني القديمة ، ومن ميزات القلعة التي أعجبتني كثيراً كان النظام المائي الداخلي في القلعة حيث يوجد فيها عديد من الآبار المحفورة والقنوات المتسعة الطويلة التي تنساب فيها الماء الصافي إلى جميع نواحي القلعة ، أمضينا في القلعة ساعةً أو أكثر ، ثم انصرفنا منها فخورين بتاريخنا الماضي وتراثنا القديم ، مكدودين على تحديات حاضرنا المصيرية والوجودية ، ومقلقين بشأن تهديدات مستقبلنا الوافدة ولم نزل نحلم أحلاماً بعيدة على سرير التخبط والتعطل ، ونضيع أوقاتنا القيمة في أفكار سخيفة تذهب سدىً ولا تجدي بنا نفعاً .

(للحديث بقية)

الإمام الشافعي لغوياً وشاعراً

الباحث أشفاق أحمد واني*

شهد تاريخنا الإسلامي كثيراً من جهابذة العلماء عبر العصور ، وقليل منهم من وُصف بأنه عبقري . والعبقري هو من جمع إلى الدراية بمسائل العلم ودلائله : الحذقَ فيه والتأثير في بنيته ومسيرته . ومن أحق الناس بهذا الوصف الإمام الشافعي الذي هو أول من صنف في علم أصول الفقه مؤصلاً أسسه وفروعه ، وقام بتطبيق هذه الأصول في سفره الفريد " الأم " . فهذه المزية لم يشاركه فيها أحد من الأئمة المتبوعين . وعبقريته تظهر جلياً من الأفكار التي بثها الإمام في (رسالته) ، حيث تعبر عن روح ثقافة بأكملها ، كما تظهر أيضاً من المعرفة الحية التي قدمها الإمام ، وعظيم تأثرها في تاريخ التراث الإسلامي . ولا بد للناظر في كتبه من الإقرار بأن ما أتي به الإمام وقدمه من العلم والمعرفة معدود في نوادر ما وضعته العقول وجادت به القرائح . ومن ثم لم يزل الباحثون يغترفون من جانب بحر علومه ومعارفه لا سيما المستشرقون منهم حيث يعنون بالشافعي وتراثه عناية خاصة ، دراسة ونقداً مما جعلهم أن يصفوا الإمام بأنه (المشرّع الأكبر للعقل الإنساني) و (المؤلف المعياري الرائد) للمنهج الأصولي .

ومن المعلوم أن الشافعي أحد الأئمة الأربعة المشهورين بالإمامة في الفقه حيث كانت له شهرته فيه ، لكن شهرته الأدبية لا تقل عن شهرته الفقهية ، فللشافعي مزية خاصة على غيرهم من الأئمة المتبوعين ، وهي أن الشافعي كان موسوعياً معرفياً وإماماً في شتى العلوم لا سيما اللغة العربية فهي من أخص العلوم التي عني الشافعي بها فكان له فيها ميزة بارزة ، ومن ثم يعتبر حجة فيها ومصدراً لها – على الرغم من أنه لم يكن في عصر الاحتجاج اللغوي والنحوي – كما شهد بذلك أئمة اللغة أنفسهم منهم الفراء حيث قال : " الشافعي لغة ، هو قرشي مطلبي عربي فقيه ، وقوله حجة يُعتمد عليها ، واللغة من مثله أوثق لعلمه وفقهه وفصاحته ،

* قسم اللغة العربية بجامعة كشمير ، البريد الإلكتروني :
ishfaqwani.scholar@kashmiruniversity.net

وإنه من القوم الذين تغلب لغاتهم على سائر اللغات "[1] .

ومنهم عبد الملك بن هشام صاحب كتاب السيرة النبوية حيث قال المزني : " قدم علينا الشافعي ، وكان بمصر ابن هشام صاحب المغازي ، وكان علامة أهل مصر في الغريب والشعر ، فقيل له : تأتى الشافعي ، فأبى . فلما كان بعد ذلك قيل له : إنّه وإنّه ، فأتاه فذاكره أنساب الرجال ، فقال الشافعي رحمه الله ، له بعد أن تذاكرا : دع عنك أنساب الرجال فإنها لا تذهب عنا وعنك ، وخذ بنا في أنساب النساء . فلما أخذوا فيها بَقِيَ ابنُ هشام . وكان بعد ذلك يقول : ما ظننت أن الله خلق مثل هذا . وكان يقول : قول الشافعي رحمه الله في اللغة حجة "[2] . ومنهم الأزهري حيث نقل ابن منظور قوله في الشافعي : " والشافعي فصيح حجة في اللغة "[3] . كما شهد له بذلك غيرهم من أئمة اللغة كأبي عبيد القاسم بن سلام والمبرد والزمخشري وغيرهم، ولذلك كله وجدنا الإمام الشافعي يقول عن نفسه : " ما بلغني أن أحداً أفهم لهذا الشأن مني ، وقد كنت أحب أن أرى " الخليل " بن أحمد "[4] .

وهذه الحجة اللغوية للشافعي تظهر في فروعها أيضاً ، كما جاء عن أبي عثمان المازني أنه قال : " الشافعي عندنا حجة في النحو "[5] .

وقد أقر المتقدمون والمتأخرون من أئمة اللغة بالتقدم للشافعي في الفصاحة أيضاً ، فكان فصيح اللسان ، ناصع البيان ، في الذروة العليا من البلاغة . وقد شهد له بذلك كثير من أئمة اللغة منهم الزعفراني حيث قال : " ما رأيت أحداً قطّ أفصح ولا أعلم من الشافعي . كان أعلم الناس، وأفصح الناس ، وكان يقرأ عليه من كل الشعر فيعرفه "[6] . ومنهم الجاحظ حيث قال: " نظرت في كتب هؤلاء النَّبَغة الذين نبغوا فلم

---

[1] الآجري ، محمد بن الحسين بن عبد الله ، جزء فيه حكايات عن الشافعي وغيره ، تحقيق : أبي هاشم إبراهيم بن منصور الهاشمي الأمير ، دار البشائر الإسلامية ، ط ١، ٢٠١٠م ، بيروت ، ص ٣٢ .

[2] البيهقي ، أبو بكر أحمد بن الحسين ، مناقب الشافعي ، تحقيق : السيد أحمد صقر ، مكتبة دار التراث – القاهرة ، ط ١ ، ١٩٧٠م ، ج ٢ ، ص ٤٢ .

[3] ابن منظور ، محمد بن مكرم بن علي ، أبو الفضل ، جمال الدين بن منظور الأنصاري ، لسان العرب ، دار صادر – بيروت ، ط ٣ ، ١٤١٤هـ ، ج ٨ ، ص ٤٢٠ .

[4] البيهقي ، مناقب الشافعي ، ج ٢ ، ص ٥٢ .

[5] البيهقي ، مناقب الشافعي ، ج ٢ ، ص ٤٤ .

[6] البيهقي ، مناقب الشافعي ، ج ٢ ، ص ٤٩ .

أر أحسن تأليفاً من المُطَّلِبِي ، كأن فاه نظم درًّا إلى درّ "[1] . وقال أبو ثور : " من زعم أنه رأى مثل محمد بن إدريس في علمه وفصاحته ومعرفته وثباته وتمكنه فقد كذب ، كان محمد بن إدريس الشافعي منقطع القرين في حياته ، فلما مضى لسبيله لم يُعتض منه "[2] .

ولعله السر في صعوبة لغة الشافعي ، فقد قال الربيع : " كان الشافعي عربي النفس ، عربي اللسان ، ولو رأيته وحسن بيانه وفصاحته لتعجبت منه ، ولو أنه ألف هذه الكتب – على عربيته التي كان يتكلم بها – لم يُقدر على قراءة كتبه "[3] . كما قال تلميذه يونس بن عبد الأعلى : " ما كان الشافعي إلا ساحراً ، ما كنا ندري ما يقول إذا قعدنا حوله ، فإن ألفاظه سُكّر "[4] .

ومظاهر هذه الفصاحة والثراء اللغوي للشافعي تتجلى في استخدامه هذه الكلمات :

- كلمة (النِّذارة) ، بكسر النون ، وقد استخدمها الإمام الشافعي في معنى (الإنذار) في قوله : " فخص جل ثناؤه قومه وعشيرته الأقربين في النذارة وعم الخلق بها بعدهم "[5] . وهذه الكلمة نادرة لم توجد في المعاجم إلا في القاموس للفيروزآبادي حيث عدها مصدراً اكتفاءً باستعمال الإمام الشافعي لها[6] . وهذا يدل على سعة اطلاعه بلسان العرب .

- ومنها مصطلح (اللسان) ، والشافعي من أسبق الناس في استعماله فاستعماله له متقدم جداً . وقد أطلقه في مواطن من كتابه ويريد به اللغة . ومن ذلك قوله أثناء حديثه عن معاني البيان : " وأنها بيان لمن خوطب بها

---

[1] المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٦١ .

[2] الخطيب البغدادي ، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي ، تاريخ بغداد ، المحقق : الدكتور بشار عواد معروف ، دار الغرب الإسلامي – بيروت ، ط ١ ، ٢٠٠٢م ، ج ٢ ، ص ٤٠٤ .

[3] البيهقي ، مناقب الشافعي ، ج ٢ ، ص ٤٩ .

[4] الذهبي ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز ، تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام ، المحقق : الدكتور بشار عوّاد معروف ، دار الغرب الإسلامي ، ط ١ ، ٢٠٠٣م ، ج ٥ ، ص ١٤٦ .

[5] الشافعي ، محمد بن إدريس ، الرسالة ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٢٢م ، ص ١٤ .

[6] الفيروزآبادي ، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب ، القاموس المحيط ، تحقيق : مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف : محمد نعيم العرقسُوسي ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت – لبنان ، ٢٠٠٥م ، ط ٨ ، ص ٤٨١ .

فمن نزل القرآن بلسانه " [1] ، وفي قوله : " ولسان العرب أوسع الألسنة مذهباً وأكثرها ألفاظاً " [2] . والإمام في استعماله لذلك متابع للقرآن المجيد ، فالله يقول : (وَمَا أَرْسَلْنَا من رَّسُول إِلَّا بلسَان قَوْمه) [إبراهيم : ٤] والظاهر أن المراد باللسان : اللغة . فالمراد باللسان أساليب العرب في استعمالاتهم للألفاظ والتراكيب لا معاني الألفاظ المفردة .

ومنها مصطلح (السياق) الذي قد أصبح من أهم نظريات اللسانيات في الدرس اللغوي الحديث . وللشافعي قصب السبق في استعماله ، وهو أول من استعمله على نطاق واسع في كتبه ، فقد صرح باستخدامه في قوله : " إنما خاطب الله بكتابه العربَ بلسانها ، على ما تعرف من معانيها ، وكان ما تعرف من معانيها اتساعُ لسانها ، وأن فطرته أن يُخاطب بالشيءِ منه عاماً ظاهراً يراد به العام الظاهرُ ، ويُستغنى بأول هذا منه عن آخره ، وعاماً ظاهراً يراد به العام ، ويدخله الخاص ، فيُستدل على هذا ببعض ما خُوطب به فيه ، وعاماً ظاهراً يُراد به الخاص ، وظاهراً يُعرف في سياقه أنه يراد به غير ظاهره. فكل هذا موجود علمه في أول الكلام أو وسطه أو آخره " [3] . كما أفرد له باباً خاصاً بعنوان : " الصنف الذي يبين سياقه معناه " في كتابه الفريد : (الرسالة) مما يبرز لنا مدى اطلاعه الواسع ونظره الدقيق في اللغة العربية وأهم عناصرها .

هذا غيض من فيض في حجية الإمام الشافعي في اللغة وفصاحته في البيان .

إضافةً إلى ذلك ما امتاز به الشافعي من براعة في الشعر أيضاً فله منزلة كبيرة في الشعر ، وقد تميز الإمام بشاعرية متدفقة وموهبة مقتدرة ، وسليقة أدبية أصيلة ، ترجع إلى كفاءته النادرة ذكاءً وفطنة وبداهة وبصيرة ، تعود إلى إكبابه على تعلم الشعر وأيام الناس والأدب منذ صغر سنه فأقام على تعلمه عشرين سنة . وعاش في قبيلة هذيل بما أنها كانت من أفصح العرب لساناً وتكلماً ، فحفظ من أشعارهم عشرة آلاف بيت بإعرابها وغريبها ومعانيها . وتضلعه من هذا الفن يظهر من قوله متحدثاً عن علمه بالشعر حيث قال : " إني لأعرف في الشعر طويله وقصيره وكامله وسريعه ومحدثه وقديمه وثقيله وخفيفه ورجزه ورمله وحكمه وغزله وما قصد به العشاق ، وما امتدح به المكثرون ، وما خرج عن الطرب وما تكلم به

---

[1] الشافعي ، الرسالة ، ص ٢١ .
[2] المرجع نفسه ، ص ٤٢ .
[3] الشافعي ، الرسالة ، ص ٥١ – ٥٢ .

الشاعر فصار حكمةً لمستمعه إلى غير ذلك من أقسام الشعر وأحكامه " [1] .

وهذا الاستقصاء والاستيعاب بشعر العرب جعله راوية له ، فكان يروي لثلاث مائة شاعر مجنون . كما قام الأصمعي – إمام زمانه في علم اللسان – بسماع الشعر من الإمام الشافعي حيث قرأ عليه الأصمعيُّ شعر الشنفرى ، وأنشده الإمام الشافعي لثلاثين شاعراً أساميهم : عمرو . وقد صحح عليه الأصمعي أشعار هذيل بما أن الشافعي كان قد حفظ جل أشعار هذه القبلية العذبة مناهلها [2] . وذلك كله في أيام لم يزل الإمام الشافعي شاباً ، وكان حينئذ أصغر من الأصمعي بخمسة وعشرين عاماً ! وهذا ما دفع الأصمعي إلى أن وصف الإمام الشافعي بقوله : " رأيت محمد ابن إدريس، فرأيت فقيهاً عالماً حسنَ المعرفة عذبَ اللسان ، يحتج ويعرف ، ولا يحسن إلا لصدر سرير ، وذروة منبر ، وما علمت أني أفدت حرفاً ، فضلاً عن غيره . ولقد استفدت منه ما لو حفظ رجل يسيره هكذا لكان عالماً " [3] .

ومن هذا المنطلق أصبح الإمام الشافعي شاعراً مجيداً يرسل الشعر كالماء المنهمر بلا لغب ولا كلفة ولا صنعة ، وكان من أحسن الناس افتناناً في الشعر حتى عده المبرِّد من أشعر الناس ، وآدب الناس [4] . وقد قيل : إن الشافعي شاعر غلب عليه الفقه . ومع هذه المقتدرة الشاهقة لم يشغل فكره وعقله في قرض الشعر ، بل كان تركيزه الأول هو الفقه وأصوله ، ولم يكن من أهدافه أن يكون شاعراً بل كان يرى أن الشعر ينتقص من قدر العلماء ، ومن ثم لا يوجد للشافعي من الشعر إلا المقطوعات وأبيات طيّارة ، وقد روي عنه أنه أنشد :

فلولا الشّعْرُ بالعلماء يزْرِي لكنتُ اليوم أَشْعَرَ من لَبيد [5]

يتسم شعر الشافعي من الناحية الفنية بالسهولة والبساطة والعذوبة مع رقي الفكر وعمق المعنى ، حيث التزم الوضوح كما تجنب عن التقعر في الأسلوب ابتغاء الاختصار والتسهيل ، فإذا قارنت بين نثره وشعره بدا

---

[1] بهجت ، د . مجاهد بهجت مصطفى ، شعر الشافعي ، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر ، جامعة الموصل ، ١٩٨٦م ، ص ٢٤ .

[2] ينظر : البيهقي ، مناقب الشافعي ، ج ٢ ، ص ٤٤ – ٤٥ .

[3] القاضي عياض ، أبو الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي ، ترتيب المدارك وتقريب المسالك ، مطبعة فضالة – المحمدية ، المغرب ، ط ١ ، ج ٣ ، ص ١٨٤ .

[4] البيهقي ، مناقب الشافعي ، ج ١ ، ص ٢٧٩ .

[5] المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ٦٢ .

لك الفرق بينهما وستجده يختار في النثر أجزل الألفاظ ويميل فيه إلى الغريب والصعب في حين لا تكاد تجد في شعره لفظاً غريباً ولا صعباً ، بل تجد جل شعره سهلاً واضحاً .

وأما موضوع شعره فهو مليئ بالحكم التي تدور حول الأخلاق الطيبة حيث كان يتحرى من خلاله التربية السليمة ، ويمتاز شعره بالكلمة الشعرية القوية المعبرة عن القيم النبيلة .

وإذا طالعنا مسيرته العلمية وجدنا أن الشعر العربي كان له دور عظيم في تضلعه من الفقه كما أقر الإمام بذلك بنفسه حينما سئل عن اهتمامه البالغ بتعلمه اللغة والشعر بقوله : " ما أردت بذلك إلا الاستعانة على الفقه " [1] . ويدل على هذه الاستعانة شهادة أبي حسّان الزيادي له به حيث قال : " ما رأيت أحداً أقدر على معاني القرآن والعبارة عن المعاني والاستشهاد على ذلك من قول الشعر أو اللغة منه " [2] .

ومن الشواهد المليحة في هذا الباب استشهاده بالشعر في مسألةٍ جزاء صيد المحرم إذا صاد المحرم الحمامة بأن فيها شاة رغم كونها طائرة بأنها أشرف الطائر عند العرب ، فلا تقاس على غيرها من الطيور بل تلحق بما هو أكبر وأغلى منها . وفي ذلك يقول : " والفرق بين حمام مكة وما دونه من صيد الطير يقتله المحرم لا يجوز فيه إلا أن يقال بما تعرف العرب من أن الحمام عندهم أشرف الطائر وأغلاه ثمناً " إلى أن قال : " وقد كان من العرب من يقول حمام الطائر ناس الطائر أي يعقل عقل الناس " . ثم قواه من جهة المعنى بالشعر فيقول : " وذكرت العرب الحمام في أشعارها : فقال الهذلي :

وذكّرني بُكاي على تليد حمامة أن تجاوبت الحماما

وقال الشاعر :

أحنُّ إذا حمامة بطن وَجٍّ تغنّت فوق مرقبة حنيناً

وقال جرير :

إني تُذكّرني الزبيرَ حمامةٌ تدعو بمدفَع رامَتَين هديلاً

مع شعر كثير قالوه فيها ، ذهبوا فيه إلى ما وصفتُ من أن أصواتها غناء وبكاء معقول عندهم وليس ذلك في شيئ من الطائر غير ما

---

[1] البيهقي ، مناقب الشافعي ، ج ١ ، ص ٤٩٩ .

[2] ابن عساكر ، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ، تحقيق : عمرو بن غرامة العمروي ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق ، ١٩٩٥م ، ج ٥١ ، ص ٣٦٢

وقع عليه اسم الحمام "[1] .

ومنها :

إظهار معنى (شَطْرَهُ) في قوله تعالى : (وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ) [البقرة : ١٥٠] ، إذ أبان أن معنى : (شَطْرَهُ) (جهته) أو (تلقاءه) في كلام العرب ، فـ " إذا قلت : أقصد شطر كذا معروف أنك تقول أقصد قصد عين كذا يعني قصد نفس كذا ، وكذلك : (تلقاءه) (جهته) أي : أستقبل تلقاءه وجهته ، وإن كلها معنى واحد "[2] .

وراح بعد ذلك يحتج بشواهد شعرية ، فيقول : " قال خفاف بن ندبة :

ألا من مبلغ عمراً رسولا وما تغنى الرسالة شطر عمرو

وقال ساعدة بن جوية :

أقول لأم زنباعأقيمي صدور العيس شطر بني تميم

وقال لقيط الإيادي :

وقد أظلكم من شطر ثغركم هول له ظلَم تغشاكم قِطَعا

وقال الشاعر :

إن العسير بها داء مخامرها فشطرها بصر العينين مسحور

ليخلص بعدها إلى القول : " وهذا كله مع غيره من أشعارهم يبين أن شطر الشيئ قصد عين الشيئ إذا كان معايَناً فبالصواب ، وإذا كان مغيباً فبالاجتهاد بالتوجه إليه "[3] .

ويمكن أن نستشف مما سبق أن الإمام الشافعي قد انفرد من بين المحدثين وأكثر الفقهاء بافتتاح التأليف الذي يقوم على الحجاج والنقاش ، والجزء الكبير من ذلك الحجاج قائم على الاستنباط اللغوية . كما يمكن أن نلخص منه أن المقدرة اللغوية للشافعي تظهر في :

سعة اطلاعه في العلوم العربية .

فصاحته ، وعذوبة لسانه ، وحجية لغته .

شاعرية متدفقة وسليقة أدبية أصلية .

اعتنائه بفقه اللغة وعلمها .

وصلى الله تعالى على خير خلقه محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

---

[1] الشافعي ، أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس المطلبي القرشي المكي ، الأم، دار المعرفة – بيروت ، ١٩٩٠م ، ج ٢ ، ص ٢١٦ .

[2] الشافعي ، الرسالة ، ص ٣٤ .

[3] الشافعي ، الرسالة ، ص ٣٦ – ٣٧ .

قرأت لك

التفسير الموضوعي لسور القرآن العظيم

بقلم : الدكتور صالح العود *

كان مؤلفه الشيخ العلاّمة سيدي عبد الحميد طَهماز رحمه الله وطيّب ثراه ، يوافيني بأجزائه المطبوعة (متفرقة) وهو في مكة المكرّمة (هدية) جزيلة منه . وبعد أن توفي (سنة ٢٠١٠م) ، صدر في ثمانية مجلدات ضخمة فاخرة عن دار القلم الدمشقيّة في سنة (١٤٣٥هـ – ٢٠١٤ م) ط . ثانية محققة ومَزيدة من المؤلف .

عَرّف التفسير الموضوعي خير تعريف الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر رحمه الله ، فقال : أن يعمد المفسّر إلى جمع الآيات التي وردت في موضوع واحد ، ثم يضعها أمامه كمواد يحللها ، ويفقه معانيها ، فيتجلّى له الحكم ، ويتبين له المَرْمَى الذي ترمي إليه الآيات الواردة في الموضوع " . اهـ

وبالتالي ، فإن هذا النوع من التفسير الحديث ، غير التفسير العتيق المألوف ، والذي يسمى ويُعرف بالتفسير " المَوْضِعِي " للآية الكريمة ، كتفسير الأئمة المشهورين : ابن سلام ، والطبري ، وابن كثير ، وابن عطية ، والرازي ، والقرطبي ، والخازن ، والسيوطي ، والآلوسي ، والمراغى ، وابن عاشور وسيد قطب ، والشنقيطي ، والزحيلي ... وغيرها .

وأول من عالج موضوع هذا النوع من التفسير – حسب علمي – الشيخ محمد عبد الله دَرَاز ، إذ تناول كمبادرة منه سورة البقرة الكريمة فقط ، وصدر تفسيره هذا تحت عنوان : " النبأ العظيم " ، ثم اتَّبعَ أثرهما الشيخ محمود شَلتوت صدر له في هذا كتابان ، هما : " القرآن والمرأة " و " القرآن والقتال " ، ثمّ ، اتّبَعَ أثرهما الشيخ محمد الغزالي بكتابه : " نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم " في مجلد ضخم سنة ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م من ٥٥٨ صفحة .

ثم الشيخ عبد الحميد طهماز ، موضوع هذا المقال الخاص ، وأعرض على القراء والقارئات ما رمى إليه مُوضحاً ناشر هذا التفسير بعناية فائقة : الأستاذ محمد علي دوله صاحب دار القلم ، قام بدراسة تفسيريّة للقرآن الكريم ، أثبت فيها أن سورة من سوره تعالج فكرة

* مجاز في الشريعة من جامعة الأزهر .

محددة ، ترتبط فيها جميع آيات هذه السورة) . ص ٨ وتحت عنوان " من مزايا هذا التفسير " ج ١ ، ص ١٠ كتب ، عنه ما يأتي :

(١) انصبّ اهتمامُ المؤلف على تقديم معاني الآيات القرآنية ، وعرضها على القارئ بعبارات واضحة وأسلوب سَهْل مُيَسّر ، وأجد أنه يجب علي أن أعترف أنني حينما أحتاج لفهم معنى آية من كتاب الله سبحانه وتعالى ، فإني أراجع ما لا يقل عن عشرين تفسيراً تحتويها مكتبتي المتواضعة لكني أشهد أن معنى هذه الآية أو الآيات لا أتبينه ولا أصل إليه بالسهولة واليسر اللذين أجدهما في التفسير الذي صاغه الشيخ عبد الحميد طهماز ، جزاه الله خيراً .

(٢) لم يشغل المؤلفُ القارئ بقضايا لغوية أو فقهية أو كلامية ، بل كان محور اهتمامه أن يوصل إلى القارئ فهم معنى آيات الكتاب الكريم واستيعاب ما تحتويه بكلام موجز مفيد .

(٣) اعتنى المؤلفُ عند تفسيره لآية ما ، بأن يأتي في هذا التفسير بما شبهها من الآيات الأخرى التي تُعنى بالفكرة نَفسها ، وبذلك جاء بتفسير موضوعي – حسب تعريف العلماء له – للمسألة التي تتناولها هذه الآية ومثيلاتها .

(٤) تعرّض المؤلف لعدد من القضايا العلمية المبثوثة في هذا الكون العجيب الذي أبدعته قدرة الله عزّ وجلّ ، والتي كشف عنها العلم الحديث ، وذلك حينما تناول تفسير بعض الآيات التي أشارت إلى هذه القضايا ، واستطاع أن يوضحها ويقربها من القارئ بحيث لا يشعر أنه انتقل من تفسير للقرآن الكريم إلى قراءة في موضوع علمي بحت ! وانظر في هذا المجال تفسيره لقوله : (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بيوتاً) [النحل : ٦٨] .

وانظر نقله الجيد من كتاب " بين ميزان الشرع ومنظار العلم " لأسباب تحريم لحم الخنزير ، وذلك في تفسيره للآية (١١٥) من سورة النحل ، وهي قوله تعالى : (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ) .

(٥) انظر إيراده لقصة ذي القرنين ورحلاته والسد الذي أقامه ، ومن هم يأجوج ومأجوج ؟ وهي من القضايا التاريخية الغامضة ، التي استطاع أن يعرضها ويقربها للقارئ بكل يسر وسهولة .

(٦) هذا التفسير يصلح لأن يكون مرجعاً جيداً للمسلم المعاصر ، مهما كانت درجته من العلم ولسوف يجد فيه القارئ ضالته إن شاء الله .

أبو حنيفة : حياته وعصره ، آراؤه وفقهه

للشيخ محمد أبي زهرة المصري

عرض : الباحث محمد مرغوب الرحمن الندوي*

الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطي التيمي الكوفي وُلد في سنة ثمانين من الهجرة ، وتتلمذ على الإمام حماد في السنة الثانية والعشرين من عمره ، ولازمه إلى الأربعين ، ثم جلس على منصب التدريس في سن الأربعين من عمره ، وتوفي في سنة خمسين ومائة ، فتم له من العمر سبعون سنة .

آراء وأفكار :

وأبو حنيفة أحد أئمة الإسلام والسادة الأعلام ، وأحد الأئمة من أصحاب المذاهب المتبعة ، ما في ذلك من ريب ، ومع ذلك كان بحراً زاخراً من بحور العلم ومفكراً سليم التفكير ، وقد اطلع الإمام على جميع العلوم الإسلامية والعلوم الأخرى المهمة ، وله خبرة في مجال الشريعة الإسلامية ، وعمق في التفكير وسعة معرفة الإسلام ، ومما يدل على ذلك ما كتبه " أبو زهرة " في كتابه " أبو حنيفة حياته وعصره ، آراؤه وفقهه " تحت هذا العنوان : " آراء لأبي حنيفة في الفكر والأخلاق والاجتماع " ، فيقول :

" امتاز أبو حنيفة (رحمه الله) في عقله بأنه بعيد الغور في تفكيره ، عميق النظرة ، شديد الغوص في تعرف البواعث والأسباب والغايات لكل ما يقع تحت نظره من أعمال وأمور ، ولقد كان يغشى الأسواق ، ويتجر ويعامل الناس ، ويدرس الحياة كما يدرس الفقه والحديث ، ويجادل الرجال في شئون العقيدة ومناهج السياسة ، لذلك أثرت عنه آراء محكمة في مناهج الفكر ، وأخلاق الناس ، ومعاملتهم ، وما ينبغي أن يتبعه الشخص معهم ، ولننقل لك طائفة من مأثور قوله تبين منحى فكره ، ونظراته إلى الحياة والاجتماع " .

ويقول (الإمام أبو حنيفة) في كتاب " العالم والمتعلم " : " اعلم أن العمل تبع للعلم ، كما أن الأعضاء تبع للبصر ، والعلم مع العمل اليسير أنفع من الجهل مع العمل الكثير ، ومثل ذلك : الزاد القليل الذي لا بد منه في المفازة مع الهداية بها أنفع من الجهل مع الزاد الكثير ، وكذلك قال الله تعالى : (قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُو ٱلْأَلْبَابِ) . قال المتعلم لأبيَ حنيفَة رحمه اللّهَ : أرأيت إن كَان رجل يصف

* مجمع البحوث والدراسات الشرعية لندوة العلماء ، لكناؤ .

عدلاً ، ولا يعرف جور من يخالفه ولا عدله ، أيسعه ذلك أن يقال : إنه عارف بالحق أو هو من أهله ؟ فأجابه العالم : إذا وصف عدلا ، ولم يعرف جور من يخالفه ، فإنه جاهل بالعدل والجور " .

رسالة تاريخية لأبي حنيفة :

واستطرد أبو زهرة قائلاً : " آراء أبي حنيفة في الناس والاجتماع ، وعلاقة العالم بالمجتمع الذي يعيش فيه آراء عالم خبير بأحوال النفوس ، دارس لها ، متعمق في دراستها ، فاحص لأحوالها ، قد ذاق حلوها ومرها ، وقد اشتملت وصيته التي ودع بها تلميذه يوسف بن خالد السمتي على شيئ كثير من محكم تفكيره ، ولننقل لك زبداً منها ، فقد جاء فيها :

" اعلم أنك متى أسأت عشرة الناس صاروا لك أعداء ، ولو كانوا لك أمهات وآباء ، وإنك متى أحسنت عشرة قوم ليسوا لك بأقرباء صاروا لك أمهات وآباء ، كأنك وقد دخلت البصرة ، وأقبلت على المخالفة بها ، ورفعت نفسك عليهم ، وتطاولت بعلمك لديهم ، وانقبضت عن معاشرتهم ومخالطتهم ، وهجرتهم وهجروك وشتمتهم وشتموك ، وضللتهم وضللوك وبدعوك ، واتصل ذلك الشين بنا وبك ، واحتجت إلى الهرب والانتقال عنهم . وليس هذا برأي ، إنه ليس بعاقل من لم يدار من ليس له من مداراته بد ، حتى يجعل الله مخرجاً .... إذا دخلت البصرة ، ... فأنزل كل رجل منزلته ، وأكرم أهل الشرف ، وعظم أهل العلم ووقر الشيوخ ، ولاطف الأحداث ، وتقرب من العامة ودار الفجار ، واصحب الأخيار ، ولا تتهاون بسلطان ، ولا تحقرن أحداً ، ولا تقصرن في مروءتك ، ولا تخرجن سرك إلى أحد ، ولا تثق بصحبة أحد حتى تمتحنه ، ولا تخادن خسيساً ولا وضيعاً ، ولا تألفن ما ينكر عليك في ظاهره ، وإياك والانبساط إلى السفهاء ... وعليك بالمداراة والصبر والاحتمال وحسن الخلق وسعة الصدر ، واستجد ثياب كسوتك ، واستفره دابتك ، وأكثر استعمال الطيب ، ... وخذ العفو و أمر بالمعروف ، وتغافل عما لا يعنيك ، واترك كل ما يؤذيك وبادر في إقامة الحقوق ، ومن مرض من إخوانك فعده بنفسك ، وتعاهده برسلك ومن غاب منهم افتقدت أحواله ، ومن قعد منهم عنك فلا تقعد أنت عنه ... وأعط كل من يختلف إليك نوعاً من العلم ينظرون فيه ، ويأخذ كل واحد منهم بحظٍ شيئ من ذلك ، وخذهم بجلي العلم دون دقيقه ، وآنسهم ومازحهم أحياناً ، وحادثهم ، فإن المودة تستديم مواظبة العلم ، وأطعمهم أحياناً ؛ واقض حوائجهم ، واعرف مقدارهم ، وتغافل عن زلاتهم ، وارفق بهم ، وسامحهم ، ولا تبد لأحد منهم ضيق صدر أو ضجر ، وكن كواحد منهم ، ... واستعن على نفسك بالصيانة لها ، والمراقبة لأحوالها ، ... ولا تكلف الناس ما لا يطيقونه ، وارض لهم ما رضوا لأنفسهم ، وقدم إليهم حسن النية ، واستعمل الصدق ، واطرح الكبر جانباً ،

وإياك والغدر ، وإن غدروا بك ، وأدِّ الأمانة وإن خانوك ، وتمسك بالوفاء ، واعتصم بالتقوى ، وعاشر أهل الأديان ، وأحسن معاشرتهم " .

دلالات ومعارف :

استطرد الكلام أبو زهرة وهو يبين ما في هذه الوصية من آراء فيقول : هذه وصية الإمام أبي حنيفة لبعض تلاميذه وقد فارقه إلى البصرة ، يعلم أهلها فقه الكوفة ، وآراء شيوخها ، وهي تكشف عن ثلاث نواح في ذلك الإمام الجليل :

أولاها : أنها تكشف عن أخلاقه وقوة استمساكه بالفضيلة ، وقد صارت له ملكة كالطبع والجبلة ، وليس بغريب أن تكون أخلاق الإمام على ذلك النحو فقد راض نفسه على مكارم الأخلاق ، والبعد عن سفساف الأمور ، حتى لقد كان يترك المعاصي لأنها تنافي المروءة ، لا لأنها تنافي الدين فقط ، فقد كان يقول : رأيت المعاصي مذلة ، فتركتها مروءة ، فصارت ديانة .

الناحية الثانية : دراية أبي حنيفة بشئون الاجتماع وأخلاق الناس ، وما يعالجون به ، وقد انتهى رحمه الله في علاجه إلى أن مصلح الجماعة يجب أن يكون ودوداً ، يألف ويؤلف ، لا يخالف ولا ينافر ، بل يجيئ إلى الناس من ناحية ما يألفون ويطيقون ، لا من ناحية ما ينكرون ، فإذا كان له رأي يخالفهم فيه لا يفجؤهم بالمخالفة ، حتى لا تجمح نفوسهم ، بل يقرر رأيهم ثم يقرر أن هناك ما يخالفه ؛ ويدلي برأيه من غير أن ينسبه إليه ، ويدعمه بالحجة ، ويقويه بالبرهان ، فإن سألوه عن صاحب هذا الرأي قال : إنه بعض الفقهاء ، وبذلك يقبلون الرأي من غير اصطدام .

الناحية الثالثة : التي تكشف عنها هذه الوصية ناحية المربي الذي يتعهد تلاميذه ، والذي يعرف كيف يبث فيهم علمه وآراءه ، ويقربها إليهم ، وهو في ذلك يعطي نصائح الخبير المجرب ، فهو يدعو المعلم إلى أن يعطي تلاميذه من أنواع العلم وأبوابه ما يتفق مع مواهبهم ونزوعهم ومداركهم ، حتى يستأنسوا به ، ولا يتقدم لهم من العلم أولاً ما يخالف منازعهم ، فينفروا ، ثم يبتدئ من المسائل بالواضح الجلي ، ويتدرج بهم حتى يصير إليهم الخفي واضحاً جلياً ، ويوصي المربي بأن يحادث تلاميذه في فنون الأحاديث ليجلب مودتهم ، ويستديم مواظبتهم ، ثم يدعو إلى أن يمازجهم ويؤنسهم ، ويتغافل عن زلاتهم ، ويرفق بهم ويسامحهم ، ولا يضيق صدره حرجاً بهم ، وليكن كواحد منهم .

وإن من عالج الدرس وخبر التعليم ليعرف قيمة تلك النصائح وجدواها في النفوس ، وأثرها في تحبيب الطلبة للعلم ، وتسهيله عليهم ، وتشويقهم إليه ، ومكانة آراء أبي حنيفة في الفكر والأخلاق والاجتماع . والله ولي التوفيق .

نجم تألق ثم هوى

(الأخ نجم الحق في ذمة الله)

بقلم الأخ محمد مزمل حسين*

سمعنا خبراً عزّ على النفوس مسمعه ، وأثّر في القلوب موقعه ، خبراً كادت له القلوب تطير ، والعقول تطيش ، والنفوس تطيح ، خبراً أخرج الصدور ، وأحلّ البكاء ، وحرّم البصر ، وأطار السكون والطمأنينة ، وقد أتى الدهر بما هد الأصلاب ، فالقلب دهش ، والبنان يرتعش . وهو نعى الأخ الكريم والصديق الحميم نجم الحق طالب السنة الثالثة من الشريعة بدار العلوم لندوة العلماء لكناؤ ، والتحاقه بجوار ربه مساء ١٦/ ربيع الثاني ١٤٤٦هـ المصادف ٢٠ أكتوبر ٢٠٢٤م في مستشفى بلرامبور بمدينة لكناؤ ، وكان قد أصيب بالحمى الشديدة منذ أيام ، تزايد المرض حتى اشتد وأغمي عليه ليلة يوم الأحد في الساعة العاشرة ، فذهب به زملاؤه إلى مستشفى إيدين أولاً ، ثم مستشفى إيرا ، وكلية الطب للكناؤ ثم مستشفى بلرامبور ، ولم يألوا جهداً في علاجه ، لكن لم تزل تتدهور صحته تدهوراً ملحوظاً ولم يكتب له البرء الكامل ، وقد أشار الأطباء الإخصاييون إلى أنه لا رجاء في حياته . وكنا نبكي دموعاً . حتى وافته المنية بعد صلاة العصر فإنا لله وإنا إليه راجعون .

كان الأخ من مديرية فورنيا بولاية بهار (الهند) ولد عام ١٩٩٨م ، وتلقى دروسه الابتدائية في كتاب قريته ، وحفظ القرآن الكريم في مدرسة دار العلوم بأمور ، ثم اتجه إلى الجامعة الشهيرة دار العلوم ديوبند رغبة في الالتحاق بقسم التجويد ، ولم يلبث هناك إلا بضعة أشهر ، ثم انتقل إلى مدرسة بغجرات ، ثم دار التعليم والصنعة DTS Kanpur ، واصل دراسته رغم ظروفه القاسية حتى التحق بدار العلوم لندوة العلماء في بداية هذه السنة .

كان الأخ نجم الحق طالباً مثالياً مجتهداً مغامراً في سبيل العلم ، لا يبذل أوقاته في اللهو واللعب هنا وهناك ، وكان يضع هدفه أمام عينه ، لا يرده راد ولا يصرفه عن غايته شيئ ، وكان من صفاته البارزة أنه كان يتلو القرآن الكريم بصوت عذب رخيم ، فقد اصطفاه الأساتذة وقربوه إليهم وأثنوا عليه . وكان محبباً لدى الجميع ومحترماً في أوساط الأساتذة والطلاب على السواء ، وقد أكرمه الله بالخلق الحسن وصفة التواضع والتوكل والاحتساب .

وشيعت جنازته يوم الثلاثاء في مشهد رهيب في ولايته بهار ، شارك فيه آلاف من أهل القرى وأهل العلم والفكر ، وكتب عنه أكثر طلاب رواقه وأحسنوا ، وأقيمت له حفلة تأبين وعزاء في نفس تلك الليلة في رحاب دار العلوم بقاعة معهد القرآن بعد العشاء مباشرة ثم حفلة تأبين يوم الخميس برئاسة الدكتور محمد فرمان الندوي شهدها عدد كبير من الطلاب والمحبين له ، وقدموا فيها ما قدموا ، وذكروا ما ذكروا من صفاته البارزة وميزاته المميزة .

رحمه الله رحمة واسعة ، وصفح عنه زلاته وأسكنه فسيح جناته وأمطر عليه شآبيب رحمته .

---

* قسم التخصص في الأدب العربي بدار العلوم لندوة العلماء .

رجال صدقوا ما عاهدوا اللّه عليه

محمد فرمان الندوي

اخضرَّت أرض فلسطين بدماء الشهداء ، والمجاهدين في سبيل اللّه عزوجل من جديد ، وقد سُقيت ، ولا تزال تُسقى بالدماء المهراقة منذ أكثر من خمس وسبعين سنة ، وذلك لحرمة المسجد الأقصى ، وصيانته وإنقاذه من الأيدي الآثمة ، والسيطرة النجسة ، ونحن على يقين بأن اللّه سيطهر هذه الأرض المقدسة من أوضار الظلم والاعتداء ، ونجاسات الكبر والغطرسة بقوته القاهرة ، وتضحيات الطائفة المنصورة وأبطال الإسلام والمسلمين الذين لا يضرهم من خذلهم .

إن قضية فلسطين أصبحت قضية شائكةً منذ أقيمت دولة إسرائيل على أرض فلسطين ، ونالت القضية اهتمام وعناية العالمين العربي والإسلامي حينما جثم العدو على هذه المنطقة ، وقد وقعت خلال هذه الفترة ثلاث معارك حاسمة بين العرب وإسرائيل ، مرة نكبة ١٩٤٨م ، وأخرى عام ١٩٦٧م ، وثالثة عام ١٩٧٣م ، لكن العدو الغاشم مازال ولم يزل يغصب الأراضي الفلسطينية بدعم من القوى المادية الكبرى ، وقد ضحى في هذه المعارك المجاهدون المغاوير بنفوسهم ، ونذروا حياتهم ابتغاءً لوجه اللّه تعالى ، وقبل هذه المعارك الثلاث ناضل لتحرير المسجد الأقصى المجاهد الكبير الشيخ عز الدين القسام الذي كان ينتمي إلى اللاذقية ، وقد نال شهادتي العالية والعليا من جامعة الأزهر بالقاهرة ، وكان يلقب بأمير المجاهدين وداعية الجهاد في فلسطين ، وقد نفخ روح الجهاد في العالم الإسلامي ، وقام بإعداد أجيال متفانية لأجل المسجد الأقصى ، فسميت كتائب عز الدين القسام باسمه ، نظراً إلى جهوده الجسام ، وظل شعارها في معركة فلسطين : إنه جهاد : نصر أو استشهاد .

شيخ الانتفاضة أحمد يسين :

رغم التضحيات الجبارة ، وبذل الأرواح والنفائس في سبيل المسجد الأقصى ازداد الأمر تعقداً ، وصارت القضية ملتوية ، ودخلت في منعطف حاسم ، فقامت شخصية أسطورية ، وهي شخصية شيخ الانتفاضة ، وأبي المقاومة الشيخ أحمد يسين إسماعيل رحمه اللّه (١٩٣٦م – ٢٠٠٤م) ، وكان قلبه يعتصر حزناً وألماً على فوات المسجد الأقصى ، فشارك في

جهاد فلسطين وهو ابن عشرين سنةً ، ومازال يُلهب مشاعر المسلمين بلسانه وقلمه وكيانه ، وكان من خريجي جامعة الأزهر ، والمعجبين بفكرة الإمام حسن البنا ، فلم يدخر وسعاً في توسعة نطاق حركته على أرض فلسطين ، وكان قعيداً أشل ، جالساً على الكرسي ، لا يستطيع أن يتحرك إلا بالعربية ، لكنه كان صابراً ومرابطاً طول حياته في سبيل الله ، وأدخل في السجن في الثمانينيات من القرن العشرين الميلادي لسنتين ، ولما أفرج عن السجن بدأ يسعى لإفشال جهود الاحتلال ، وكان يعتقد أن الاحتلال لا يفهم إلا منطق القوة والأسلحة ، ولا يتكلم إلا بلسان النار ، فلا بد من إعداد القوة ، وجمع الوسائل المادية مع الثقة بالله ، لأنه كان يعتقد أن الشيئ الذي أخذ بالقوة لا يسترد الا بالقوة ، فلم يرض بالمفاوضات المزعومة ، فأنشأ حركة حماس عام ١٩٨٧م ، فهذه الحركة منذ أول يومها مستمرة بخيلها ورجلها ، ومعداتها ووسائلها لإنقاذ أرض فلسطين من سيطرة الاحتلال ، واستشهد الشيخ أحمد يسين في غارة جوية – وهو يرجع جالساً على كرسيه المتحرك من المسجد بعد صلاة الفجر إلى منزله – رحمه الله رحمة واسعة ، وأغدق عليه شآبيب رضوانه .

بعد شهادة الشيخ أحمد يسين لم تضعف طموحات حماس ، ولم تنطفئ شعلة مقاومتها ، بل الواقع أن نارها قد ازدادت اشتعالاً وحرقة ، ذلك لأن الشيخ أحمد يسين كان مربي الأجيال ، وصانع الرجال ، ترك خلفه عدداً كبيراً من الأبطال الشجعان الذين يتمنون الشهادة في سبيل المسجد الأقصى ، وكانوا لا يخافون الموت ، بل يستقبلونه بثغور باسمة ووجوه ضاحكة مستبشرة ، فالموت في سبيل الله عندهم أرخص متاع ، لأنهم باعوا أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، فإن جميع الفصائل الفلسطينية من كتائب القسام وسرايا القدس ، والجهاد الإسلامي وكتائب شهداء الأقصى وكتاب الشهيد أبي علي مصطفى ومناضلي الجبهة الشعبية كانت غيضاً من حسناته ، فهذه هي الكتائب الإيمانية التي جهزها الشيخ أحمد يسين ونفخ فيها روح الجهاد الإسلامي ، فإنها مازالت ولا تزال تلعب دوراً قيادياً في استعادة الأراضي المقدسة ، فإن شهادة يحيى عياش ، وفتحي الشقاقي وأبي علي مصطفى وصلاح شحادة وإسماعيل أبي شنب لم توقف المقاومة ، ولم تُسكن الجهاد ، بل حمي الوطيس أكثر مما كان ، وكان من أبرز قادة حماس : عبد الفتاح دخان من المنطقة الوسطى ، ومحمد شمعة من مخيم الشاطئ ، وإبراهيم اليازوري من غزة ، وعيسى النشار من رفح ، وموسى مرزوق ، وخالد مشعل وعبد العزيز الرنتيسي وإسماعيل هنية ، ويحيى السنوار ومحمد

الضيف وغيرهم .

ثلاثة من قادة حماس :

(١) وقد عين الشيخ عبد العزيز الرنتيسي خلفاً للشيخ أحمد يسين ، ورئيساً لحركة حماس ، وهو من مؤسسيها ، وكان من مواليد ١٩٤٧م في الضفة الغربية ، وكان خطيباً مفوهاً ، وشاعراً مفلقاً ، وأديباً حاذقاً ، وقد اشتغل بالتدريس في الجامعة الإسلامية بغزة محاضراً وأستاذاً ، لكنه لم يتغافل عن مهمته الجهادية ، فأدخل في السجن عام ١٩٨٣م ، لكنه خرج منه على عجل ، وظل نشيطاً في الحركة ، حتى انتخب خليفة للشيخ أحمد يسين ، وما إن مرَّ على تعيينه رئيساً شهر كامل ، حتى اغتالته قوات الاحتلال بقصف جوي أدى إلى شهادته ، ولبى نداء ربه في ١٧/ أبريل ٢٠٠٤م .

(٢) إن الأستاذ خالد مشعل يعد من مؤسسي حركة حماس ، ولد عام ١٩٥٦م في الضفة الغربية ، هاجر مع أسرته إلى الكويت ، فدرس في جامعة الكويت ، ونال شهادتي البكالوريس والفيزياء ، وانضم إلى حركة الجهاد عام ١٩٧١م ، وظل يقود الحركة بحكمة وبصيرة ، وشغل منصب رئاسة حماس إلى مدة ، في فترتين ، وقد استهدفه الموساد للاغتيال في الأردن ، لكن الله عز وجل نجاه ، ووقاه من كل سوء ، وقد زار غزة عام ٢٠١٢م ، ويعيش الآن في الدوحة ، أبقاه الله ذخراً للإسلام والمسلمين .

(٣) تقلد رئاسة حماس عام ٢٠١٧م الدكتور الشهيد إسماعيل هنية ، وكان شخصية نابغة ببطولاتها النادرة ، وتضحياتها الجبارة ، كان من مواليد ١٩٦٢م ، في مدينة غزة ، حفظ القرآن الكريم وأتقنه ، وواصل دراسته في الجامعة الإسلامية بغزة ، وحصل منها على شهادتي الليسانس والماجستير والدكتوراه ، بدأ حياته الجهادية من شبابه ، واعتقل وسجن ، لكن الله تعالى فك أسره ، وأصبح رئيساً لحركة حماس ، ولعب دوراً ريادياً في تنشيط حركة حماس وإحداث طوفان الأقصى واستمراريته إلى سنة كاملة ، حتى استشهد في أحد فنادق إيران في ٣١/ يوليو عام ٢٠٢٤م ، وكان من جمله السائرة أنه قال يقول : لن نعترف بإسرائيل ، لن نعترف بإسرائيل ، وكان يقول : نحن قوم نعشق الموت كما يعشق أعداؤنا الحياة ، ونعشق الشهادة على ما مات عليه القادة .

عاش سعيداً ومات شهيداً :

إن بطلنا المغوار يحيى السنوار عاش سعيداً ومات شهيداً ، وقد لبى نداء الله عز وجل كما كان يتمنى الشهادة في سبيل الله ، وكان في معترك الحياة وأتون الجهاد ، يحارب ويناضل ويقاوم الاحتلال حتى الرمق

الأخير من حياته مقبلاً غير مدبر ، وكانت يده مجروحةً ، ورجله مبتورةً ، لكنه لم ييأس من رحمة الله تعالى ، بل رمى بعصاه كاميرا الدرون رغم جروحه وقروحه ، فأصبح عمله هذا مضرب المثل ، وقد جرى على لسان الناس : رميته بعصا السنوار ، وأدخلت هذه الجملة السائرة الذكر في الأمثال العربية المعاصرة ، وقد سماه العالم الإسلامي قائداً عبقرياً ومجاهداً أسطورياً ، وأصبح يحيى السنوار بعد شهادته في السابع عشر من شهر أكتوبر ٢٠٢٤م رمزاً للبطولة والإباء والجهاد والكفاح ، وقد جمع في شخصيته معاني الفتوة والشجاعة والبسالة ، إنه كما قال رئيس حماس الدكتور خليل الحية : " إنه مات موت الشرفاء الكرام ، موت الأبطال الأحرار ، موتا يحيى آلاف القلوب الميتة ، رخص بنفسه ودمه في سبيل أمته ، لم يبال بأسلحة العدو المدمرة ، وصواريخه الفتاكة وقنابله المهلكة في سبيل الدفاع عن الدين والعزة والعرض والوطن والأمة ، لقد استخف بدمه لحقن دماء شعبه ، واستهان بحياته ، ليحيى أمته حراً كريماً ، إنه مات ليحيى كما كان قبل موته : يحيى ليموت ، نعم هو القائد الذي مات ليحيى في قلوب الملايين من أمته " .

قضى يحيى السنوار عشرين سنة من حياته في السجن ، بدءاً من ١٩٨٨م إلى ٢٠١١م ، وكان من مواليد ١٩٦٢م ، وقد وفقه الله لإعداد كتب علمية وأدبية ، منها الشوك والقرنفل ، وهو قصة جهد وجهاد في سبيل الله ، وكان يقول : " إن أكبر هدية يمكن أن يقدمها العدو والاحتلال لي هي أن يغتالوني ، هي أن أقضي إلى الله سبحانه وتعالى شهيداً ، أنا حقيقة أفضل أن أستشهد بـ " إيف ١٦ ، أو بالصواريخ ، من أن أموت بكورونا أو أموت جلطة أو سكتة أو بحادث طريق " ، وقد حقق أمنيته هذه ، وكتب له الشهادة الحقيقية ، وحشره مع الأنبياء والشهداء والصديقين والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً .

هذه نبذه من سيرة رؤساء الشهداء في سبيل تحرير فلسطين ، وهناك قائمة طويلة للشهداء في طوفان الأقصى من الرجال والشباب والنساء والصبيان والأرامل والثكالى والمحرومين ، فهؤلاء الشهداء كلهم يعيشون في جنات الخلد عند مليك مقتدر بإذن الله ، ولا شك أن ذكر بطولاتهم وتضحياتهم ينفخ في الأجيال المعاصرة روح الجهاد والاستشهاد في سبيل الله تعالى ، وهذه الغاية التي يسعى لها المؤمن الحقيقي ، قال الله تعالى : (مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَاهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلاً) [الأحزاب : ٢٣] .

(١) الأستاذ علي حسن الندوي إلى رحمة الله تعالى

قلم التحرير

انتقل إلى رحمة الله تعالى الأستاذ الفاضل علي حسن الندوي في السابع من شهر ربيع الثاني ٧/ ربيع الثاني ١٤٤٦هـ المصادف ١١/ أكتوبر ٢٠٢٤م ، عن عمر يناهز ٧١ عاماً ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

كان الأستاذ علي حسن الندوي ينتمي إلى ولاية جار خند ، وقد وُلد في هذه المنطقة عام ١٩٥٥م ، ودرس في دار العلوم بإسلام ناغر في جارخند ، ثم واصل دراسته في جامعة الرشاد بأعظم جراه لصاحبها الشيخ مجيب الله الندوي رحمه الله ، وبعدما أكمل الدراسة في جامعة الرشاد التحق بدار العلوم لندوة العلماء ، وكان خلال دراسته طالباً مكباً على المطالعة ، ومبرزاً بين زملائه ، وكانت سنة تخرجه في دار العلوم لندوة العلماء ١٩٧٦م ، وقد انخرط في سلك التدريس لدار العلوم بإسلام ناغر بعد إكمال الدراسة ، وظل يباشر وظيفة التعليم والتربية فيها إلى آخر حياته إلا خمس سنوات ، ودار العلوم بإسلام ناغر مدرسة ملحقة بندوة العلماء في نظامها التعليمي ، أنشئت عام ١٩٦٠م ، ولا تزال تبعث دفعاتها الطلابية إلى دار العلوم لندوة العلماء لمواصلة دراسة " العالية والعليا " ، وقد قامت بدور عظيم في تخريج العلماء والدعاة الذين ينشرون رسالة الإسلام في أنحاء الهند .

كان الأستاذ علي حسن الندوي معلماً ناجحاً ، وخطيباً بارعاً ، وعالماً جيداً ، حصلت له براعة في شتى العلوم والمعارف ، فكان خلال دروسه وخطبه يفيد الحضور إفادة تامة ، وهم يطمئنون من أسلوبه وطريقة أدائه ، وقد عقد بعض تلاميذه حفلة تأبين على وفاته في رئاسة الأستاذ رياض الدين الندوي ، وقال تلميذه النابغ الأستاذ نسيم أنور الندوي مدير جامعة فاطمة للبنات برانتشي ، جارخند : إن أكبر عامل في صقل مواهبي هو أستاذنا الشيخ علي حسن الندوي ، الذي علّمنا طرق القراءة والكتابة والخطابة ، وكنت قد تركت دراسة المدرسة ، واشتغلت بوظيفة أخرى ، لكن أستاذي قد دعاني من بيتي إلى المدرسة ، وزودني بحلية التعليم والتربية ، وألقى بالمناسبة الشيخ ضياء الهدى الإصلاحي رئيس دار العلوم بإسلام ناغر ، والأستاذ جمشيد عالم الندوي رئيس المدرسين لدار العلوم ، والأستاذ دلشاد الندوي والأستاذ عامر ضياء الندوي ، والأستاذ عبد الواحد الندوي ، والأستاذ سرفراز عالم الندوي وغيرهم من

الأساتذة ، وقد انهارت صحة الأستاذ علي حسن الندوي بعد زمن كورونا ، فأصبح متقاعداً عن التعليم ، وظل طريح الفراش ، حتى لبى نداء ربه .

رحمه الله رحمةً واسعةً ، وغفر له زلاته ، وأسبغ عليه شآبيب رحمته ، وحشره مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً .

(٢) الأستاذ نديم الواجدي إلى رحمة الله تعالى

استأثرت رحمة الله تعالى بالأستاذ واصف حسين نديم الواجدي في ١٠/ ربيع الثاني ١٤٤٦هـ ، المصادف ١٤/ أكتوبر ٢٠٢٤م ، وذلك في شكاغو في الولايات المتحدة الأمريكية حيث سافر إليها لمعالجة قلبه ، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

كان الأستاذ نديم الواجدي من مدينة ديوبند ، بأترابرديش ، الهند ، وُلد سنة ١٩٥٤م ، وكانت أسرته أسرة علمية ودينية ، نزحت هذه الأسرة في ديوبند من مدينة بجنور قبل قرن ونصف قرن ، وكان جده الشيخ أحمد حسن الديوبندي شيخ الحديث بجامعة مفتاح العلوم بجلال آباد ، وظل والده الشيخ واجد حسين الديوبندي شيخ الحديث بالجامعة الإسلامية تعليم الدين بدابيل ، غجرات ، ودرس الأستاذ نديم الواجدي الابتدائية في بيته ، ثم حفظ القرآن الكريم ودرس عدة سنوات للثانوية في مدرسة مفتاح العلوم بجلال آباد ، ثم التحق بدارالعلوم بديوبند ، وتخرج فيها عام ١٩٧٤م ، ثم تخصص في الأدب العربي عند الشيخ الأديب وحيد الزمان الكيرانوي رحمه الله .

قام الأستاذ نديم الواجدي سنةً كاملةً بالتدريس في دارالعلوم الرحمانية بحيدرآباد ، ثم رجع إلى ديوبند ، وعُين مشرفاً على قسم التصنيف والتأليف بدارالعلوم بديوبند ، وجعل ينشر الكتب والمؤلفات سنتين ، ثم استقل لأعماله ، فأنشأ مكتبةً تجاريةً باسم : دار الكتاب ديوبند عام ١٩٨٠م ، وبدأ ينشر الكتب العلمية والدينية من هذه المكتبة ، وقد نقل كتاب إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي في أربعة مجلدات ، وألف نحو أربعين كتاباً ، كما أصدر مجلةً شهريةً باسم ترجمان ديوبند عام ٢٠٠١م ، وكان عضواً بارزاً لهيئة قانون الأحوال الشخصية للمسلمين لعموم الهند ، ورئيس معهد عائشة الصديقة للبنات .

ترك الأستاذ نديم الواجدي خلفه نجلاً صالحاً وهو الأستاذ ياسر نديم الواجدي ، وهو عالم ومؤلف وأستاذ بمعهد تعليم الإسلام بشكاغو ، وقد أنشأ دارالعلوم الإلكترونية ، ومن مؤلفاته القاموس العصري ، والعولمة والإسلام .

فنحن إذ نعزي الأستاذ الدكتور المفتي ياسر نديم الواجدي على وفاة والده ندعو الله تعالى أن يرحم الفقيد رحمةً واسعةً ، ويُدخله فسيح جناته ، ويمطر عليه شآبيب رحمته ، ويلهم أهله وأولاده الصبر الجميل .

بسم الله الرحمن الرحيم

البعث الإسلامي

مجلة إسلامية شهرية جامعة
ص ب ٩٣، ندوة العلماء، لكناؤ (الهند)
الفاكس :٠٥٢٢- ٢٧٨٧٧١٠

AL-BAAS-EL-ISLAMI

NADWATUL ULAMA, P.O. BOX. 93
LUCKNOW-226007-U.P.(INDIA)
FAX:0091-522,2741221-2741231
E-Mail: albaas1955@gmail.com

رسالة أخوية مهمة

حضرة الأخ القارئ الكريم! حفظهالله تعالى للإسلام

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد فأتمنى على الله سبحانه أن تكونوا في خير وعافية وصحة جيدة، نشكركم على ما تتابعونه من قراءة:"البعث الإسلامي" وهي مجلتكم ومجلة كل محب للصحافة الإسلامية الهادفة، تصدر من ٧٠ /عاماً بالاستمرار، وهي تجتاز الآن عامها الحادي و السبعين ـ والحمد لله ـ ونرجو الله سبحانه أن يوفر لإتمامه جميع الوسائل اللازمة ويجعل التوفيق حليف العمل والعاملين.

لا يخفى عليكم أن المجلة إنما تصدر في ظروف قاسية جداً، وبتكلفة باهظة، ولاسيما بعد تضاعف أجرة البريد فهي بأمس حاجة إلى تعاون كريم منكم، وذلك بتقديم دعم علمي ومادي وشيء من الاهتمام بتوسعة نطاق مشتركين جدد من جملة إخوانكم وأصدقائكم، ولكم منا الشكر الجزيل ومن الله تعالى حسن القبول.

أرجو التكرم بتحويل أي تبرع أو اشتراك للمجلة بواسطة شيك صادر من أحد البنوك باسم:

AL-BAAS, A/C No. 10863759846
IFSC CODE: SBIN0000125, SWIFT CODE: SBININBB157
STATE BANK OF INDIA, LUCKNOW MAIN BRANCH (INDIA)

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته
أخوكم المخلص
سعيد الأعظمي الندوي
رئيس تحرير مجلة البعث الإسلامي

بالعنوان التالي:

مكتب "البعث الإسلامي"مؤسسةالصحافة والنشر
ندوة العلماء، ص ب ٩٣، لكناؤ (الهند)

R.N.I. No. (U.P.) ARA/2000/02341
Postal Regd. No. SSP/ LW-NP/64/2024 To 2026
Published on: 3rd of Every Month
Posted at R.M.S. Charbagh Lucknow-04

Monthly

Despatch Date: 5,6,7
ISSN 2347-2456
Per Copy. Rs. 40/-
Annual Subs. Rs. 400/-

AL-BAAS-EL-ISLAMI

Vol. No. 71 Issue. No. 01 December 2024

Designed by Hamid, Mob:9889654027,9918687777, E-mail:hrhamid1962@gmail.com

إصدارات حديثة

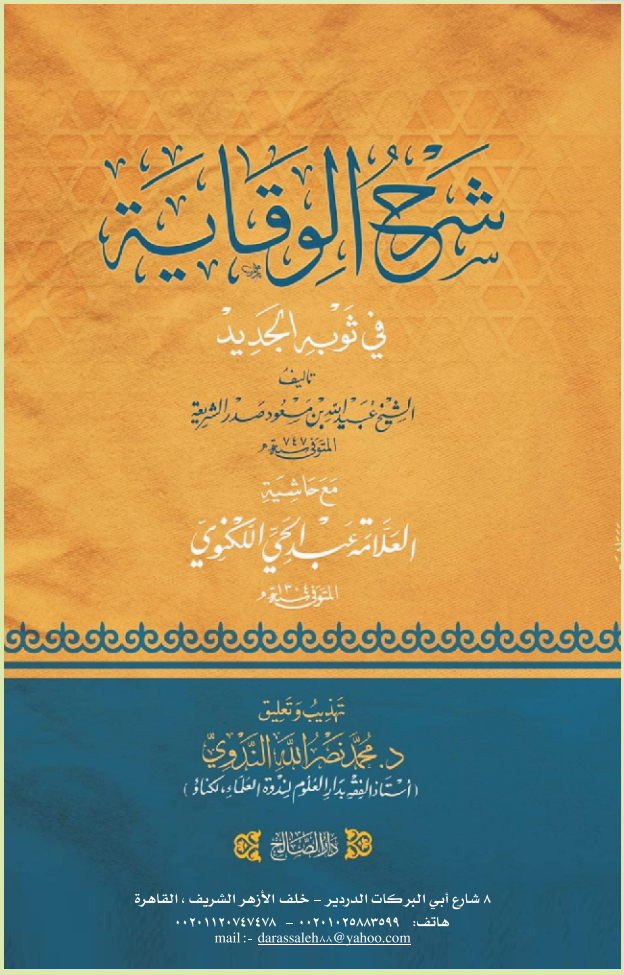

Printed & Published by MOHAMMAD TAHA ATHAR on behalf of Majlis-e-Sahafat-wa-Nashriyat
at Azad Printing Press, Nazirabad Lucknow. U.P.
Editor: SAEED -AL - AZAMI - AL- NADWI